الفصل الأول

عهد جديد

« وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفا »

قرآن كريم

انحدرت الشمس ومست الأفق ، فاصطبغ بلون الأرجوان ، بدت كذبيحة تخبط في دمائها . وجلس سعد بن أبي وقاص ، وهو فتى في السابعة عشرة من عمره ، قصير دحداح ، ذو هامة ، خشن الأصابع ، يرى النبل في هدوء ، وكان السكون يسيطر على المكان ، إلى أن عاد الناس من أرباض مكة بسرحهم ، فمزق رغاء الإبل غلالة السكون ، وأقبل الشباب من قنصهم ، راكبين كرائم جيادهم ، متوشحين أقواسهم ، وارتفع صهيل الخيل وقهقهة الشباب الملحة ألقاها أحدهم ، فدبت الحياة في المكان ، وراح كل يلتفت إلى الظباء التي صرعها مزهواً ، وقال أحدهم :

ـ مساء الخير .

ـ إلى أين ؟ ألا تأتي معنا إلى الكعبة تطوف قبل العودة إلى الدار؟

ـ سأتجه أولا إلى سعد لأبري نبلي ، ولأستعد للقنص غداً .

ولوى الشاب أعنة جواده ، واتجه إلى سعد ، فلما بلغه ترجل عن جواده ، وحيا سعدا ، وجلس يرقبه وهو يعمل بمهارة ، ثم قال له :

ـ أتجيد يا سعد الرماية إجادتك للبرى ؟

فرفع سعد رأسه ، والتمعت في عينيه ابتسامة عارضة ما لبثت أن

اختفت ، وتطلع إلى السماء ، فلمح زرقة قطا ، فتناول سهماً ووضعه فى قوسه وقال :

— أيها تريد فأصرعها لك ؟

فأشار إلى واحدة منها ، فسدد سعد سهمه وأطلقه ، فأرداها .

— مرحى سعد مرحى ، ما حسبتك قط ماهراً فى الرماية إلى هذا الحد .

* * *

وابتدأ الليل فى مد ردائه الأسود على الكون ، فانصرف سعد إلى داره ، ورضع العشاء ، فجلس وأمه يتناولانه ، فكانت أمه تحنو عليه ، وترنو إليه بعين الحب ، وكان سعد بارأ بها ، يستمع إلى حديثها ونصائحها ، وكانت تعلو شفتيه بين الفينة والفينة ابتسامة حلوة ، تنطق بما يكنه لها من حب وعطف ، وبر وطاعة .

ورفع العشاء ، وأوى سعد إلى فراشه ، وأغمض عينيه ، فراح فى سبات عميق ، فرأى نفسه فى ظلام دامس ، لا يبين شيئاً ، ولا يرى شيئاً ، فجعل يحاول الخروج من هذا الظلام اللجى ، وراح يتحسس بيده لعله يجد منفذاً للانفلات منه ، ولكنه لم يجد مخرجاً . وأخذ يخترق الظلام المتراكم بعضه فوق بعض ، فكان يخرج من ظلام ليدخل فى ظلام ، واستمر يخبط على غير هدى ، حتى نال منه التعب والكلال ، وانبهرت أنفاسه ، وجعل صدره يعلو وينخفض ، وأحس ساقيه لا تقويان على حمله ، فجلس غارقا فى بحر الظلمات منزعجاً مضطرباً ، يحس ضيقاً يكاد يقضى عليه ، وبينا هو فى ضيقه وتبرمه ، إذ أطل القمر على المكان ، فبدد بنوره دياجير الظلام ، فأحس سعد الحياة تدب فى نفسه ، والسرور يهزه ، فتفرس فى القمر فرحان جذلان ، فرأى شيئاً عجباً : رأى أبا بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة يطلون

من القمر ، ويشيرون إليه ليلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتبهتم إلى هاهنا ؟

فقالوا له : الساعة .

وهب سعد من نومه مذعوراً ، واعتدل فى فراشه ، وجعل يستعيد منامه ويحاول تأويله ؛ فلا يجد له من تأويل ، ورقد ليستأنف نومه ، ولكن النوم جافاه وخاصم عيونه ، وراح فكره يعمل ، فألفى نفسه يفكر فى رؤياه برغمه ؛ وطفق يتقلب فى فراشه كتقلبه على الجمر ، وأغمض عينيه لعل النوم يمس بأنامله الرقيقة جفنيه ، ولكنه صد ونأى ، وفر معرضاً عنه .

وارتفع صياح الديكة معلنة قدوم طلائع النهار ، فارتاح سعد لسماعها ارتياحه لسماع بشرى سعيدة ، فقد أعلنته بانقضاء الليل ، وإدبار أحلامه التى أقضت مضجعه ، وقرب قدوم النهار الذى ينكب كل فيه على عمله فينسى نفسه ؛ وما كاد صياح الديكة ينقطع حتى عاد يفكر فيما رأى فى منامه ، فتمتم :

— أضغاث أحلام ، فلم أعبرها كل هذا الاهتمام ؟

وتسللت أشعة الشمس إلى حجرته ، ففر الظلام من وجهها ، وتركها توطد سلطانها على المكان . رأى سعد نور الصباح فترك الدار واتجه إلى عمله ، واستأنف برى النبل لشباب مكة المولع بالقنص والصيد .

جلس سعد يبرى النبل فى هدوء ، وارتفعت الشمس ، ودبت الحياة فى مكة ، وأقبل أبو بكر بن أبى قحافة ، فسلم وجلس ، واستأنف سعد عمله ، وساد الصمت بينهما إلى أن قطع أبو بكر حبل السكوت ، قال

— جئتك يا سعد فى أمر ذى بال .

فتوقف سعد عن البرى ، ورفع رأسه ، والتفت إلى أبى بكر وقال :

— خيراً !

— خيراً إن شاء الله . أنت يا سعد أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، ومقدار صدقه وأمانته ، فأنت خاله ، وهو منكم .

— إن محمداً غير متهم ، فهو يؤدى الأمانة ، ويصل الرحم ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الدهر .

— قد نزل على محمد وحى من السماء ، أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده رافع السموات ، وباسط الأرضين .

— أيكفر باللات والعزى وهبل ؟

— أجل إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئاً ، ولا تدفع عن نفسها ضراً .

فأطرق سعد ، وقال أبو بكر :

— إنه يا سعد لا يبغى من وراء ذلك جاهاً ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا ، وله من نسبه فى قريش مكان الذروة والسنام ، على أن دعوته إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار الصماء إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ؛ وإن هذه الدعوة التى لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ، والتى تخلى الطريق بين العبد وربه ، يدخل إليه بغير واسطة ، ويتقرب إليه بغير زلفى ، وتدعو إلى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وتنفر من الوأد والقطيعة والتراشق ، لهى هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

استمع سعد إلى أبى بكر فمس كلامه شغاف قلبه ، وتفتحت له نفسه ، وأراد الله له الرشد والهداية ، فسأل أبا بكر :

— ومن تبعه على دينه هذا ؟

— أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

فأطرق سعد، وتذكر رؤياه التي أقضت مضجعه فصاح : « لقد كانت رؤيا صادقة » . ثم رفع رأسه والتفت إلى أبي بكر وقال :

— وأين رسول الله الآن ؟

— في شعب إجياد يعبد الله مستخفياً .

— هيا إليه !

وانطلقا ، وأخذا في السير حتى بلغا شعب إجياد ، فألفيا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي ، فجعل سعد يرمقه متعجباً ، ويتبعه بنظره ، ولما أتم الرسول صلاته ، اتجه أبو بكر وسعد إليه وسلما عليه ، وعرض النبي على سعد الإسلام ، وقرأ القرآن ، فأخذ سعد بعذوبته ، وفتن برقته ، وانتشى بحلاوته ، وكان لجرسه وقع عظيم في نفسه ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسروراً .

* * *

اغتسل سعد ، وقام يصلي صلاة العشاء ، وكبر وابتدأ في الصلاة ، ولما سجد دخلت عليه أمه ، فألفته يهمهم بصوت خاشع خفيض ، فراحت ترقبه ، فألفته لم يعر مقدمها انتباهاً ، ولم يقبل عليها كعادته ، بل ظل في همهمته وقيامه وقعوده وسجوده ، فأحدثت جلبة لتنبهه إلى مقدمها ، ولكن سعداً ظل في همهمته ، لم يلتفت إليها ، ولم يأبه بها ، فهتفت :

— سعد !

فلم تسمع لهتافها جواباً ، فصاحت غضبى :

— سعد ، ما تفعل ؟

فلم يبلغ آذانها إلا رنين صوتها ، فازداد غضبها ، واتجهت إليه فوجدته يلتفت يميناً ، ثم يلتفت شمالا ، ثم ينهض ويقبل عليها منشرحاً ،

ويفتر ثغره عن ابتسامة حلوة ، فيها غبطة واطمئنان وهدوء ، ويرنو إليها بعين الحب والعطف ويقول :

ـــ ماذا يا أماه ؟

ـــ ما كنت تفعل الآن ؟ ولمن تسجد ؟

ـــ كنت أصلى وأسجد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، خالق كل شيء ، وفاطر السماء والأرض .

ـــ أتصلى لإله غير آلهتنا وآلهة آبائنا ؟

ـــ ما آلهتكم إلا أحجار صماء .

ـــ أتسفه أحلامنا وأحلام آبائنا يا سعد ؟ عد إلى رشدك ، ودع هذا الدين الذى أحدثت .

ـــ لا يا أمت ، فإنى لا أدع دينى ، فإنه دين الحق وإنى أدعوك إليه .

ـــ ثب إلى رشدك يا سعد ، ولا تغضبنى عليك ، ولا تصبأ فتكون من الخاسرين .

ـــ إنى لأرجو أن تستمعى إلى عسى أن يهديك الله إلى الصراط المستقيم .

ـــ لا لن أستمع إليك ، لتدعن دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيرنى .

ـــ لا تفعلى يا أمت فإنى لا أدع دينى .

ـــ يا سعد رفقاً بى فما عهدتك إلا باراً رحيما .

ـــ تعلمين مبلغ حبى لك وإعزازى إياك ، وإنى ما رددت لك طلباً قط ، ولكنك تطلبين محالا ، تطلبين ممن هدى إلى الصراط المستقيم أن يتنكب الطريق القويم ، تطلبين ممن عرف الحق أن يعود ليخبط فى الضلال ، إنى يا أمت كالأعمى الذى رد إليه بصره ، فكيف تطلبين منه أن يعود أعمى كما كان أو أضل سبيلا ؟ لا . لن أدع دينى أبداً .

ـــ ولن أذوق للطعام طعما بعد اليوم .

وتركته أمه وخرجت غاضبة ، وبقى سعد يفكر فى الدين الجديد ، ويستعيد ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحس الطمأنينة تشيع فى نفسه ، واتجه أخيراً إلى مضجعه ونام ليلته الأولى راضياً مرضياً ، فى كنف الله ورسوله .

تصرم اليوم الأول ، وبقيت أم سعد على وعدها لا تأكل ولا تشرب ، فبلغ منها الجهد ، وأحست جوعاً هالكا ، وعطشاً قاتلا ، ودب الضعف فى أوصالها ، وشعرت بدوار وخور ، وبأثاث الدار يتراقص أمام عينيها ، فاستلقت على فراشها يكاد يغمى عليها من شدة الوهن . ودخل سعد ليدعوها للعشاء ، فزفرت زفرة ، وأهت أهة ، وأجهشت بالبكاء لعلها تبلغ بدموعها مالم تبلغ بتوسلاتها ووعيدها وتهديدها ، ولكن سعداً طأطأ بصره وقال :

— ألا تقومين للعشاء ؟

— لا . سأبقى هكذا حتى أموت .

— اللهم اهدها سواء السبيل .

وخرج وتوضأ ، ووقف يصلى صلاة العشاء ، فراح يقرأ القرآن بصوت صك أذن أمه ، فتيقنت أنه جاد لا هازل ، وأنه لن يتخلى عن دينه ولو فاضت روحها ، فازدادت حزناً على حزن ، وجعلت تدعو سلطان الكرى ليريحها من آلام الجوع والعطش ، وآلام النفس الحزينة ، ولكن سلطان الكرى صد وهجر ، فما كان ليطوف بالجائعين ، أو يصل المحزونين المتوجعين . ومر الزمن بطيئاً على أم سعد ، وأحست كأن ثيابها ليس لها نهاية ، وظلت قلقة أرقة ، منزعجة مضطربة ، تتذكر أيام كان سعد يطيعها ويحنو عليها فتزداد غماً وهماً ، وتتخيل شبح الموت فتزلزل الأرض تحت جنبيها ، ويصيبها دوار على دوار . وانقضت الليلة بآلامها ، وكاد البوار يصيبها ، وتلاشت مقاومتها ، وعزمت على أن تجيب

ابنها إذا دعاها إلى الطعام ، ولكن ما إن دخل ليدعوها إليه حتى أخذتها العزة بالإثم ، فرفضت وتمادت لعل قلب سعد يلين ، ولعل سعداً البار بأهله يرق لرؤيتها تقضي ، فيرتدع ويرتد إلى دين أهله وعشيرته ، إلى عبادة اللات والعزى وهبل ، ولكن سعدا نظر إليها وقال :

— والله لو كان لك ألف نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى هذا .

وتركها وخرج ، ووضع الطعام وابتدأ فى تناوله وأحس حركة عند الباب ، فالتفت فرأى أمه مقبلة نحوه تترنح ، فهب واقفاً ، ومد لها يده تتكىء عليها ، وسار بها حتى بلغا مكان الطعام فأجلسها بجواره ، ومدت يدها إلى الطعام ووضعته فى فمها ، فرنا سعد إليها مسروراً يكاد يطير من شدة الفرح

* * *

علمت قريش أن محمداً بن عبد الله يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء ، وأنه يدعو إلى عبادة إله واحد ، وأنه يسفه أحلام القوم ، ويسب آلهتهم ، ويسخر من معتقداتهم ، ويرمى آباءهم بالضلالة والجهل ، ويدعى أن آلهتهم جميعاً ما هى إلا أصنام بلهاء ، فخز ذلك فى نفوسهم ، فأرصدوا العيون حوله وحول من اتبعه ليعدوا حركاته وسكناته ، وحركات أتباعه ، ويوافوا قريشاً بها لعلهم يدرأون هذا الخطب المدلهم ، ويصدون الناس عن الافتتان بهذا الدين الجديد الذى استحدثه محمد ، هـــذا الدين الذى جاء ليفرق بين القبيلة والعشيرة والأسرة ، وليحض الناس على قطع أوشاج مايربطهم بآبائهم ، وليدفعهم إلى الثورة على معتقدات أسلافهم ، وليغير من أوضاع الناس ، فيجعل الفقراء أنداداً للأغنياء . وقد كان أكثر الناس مقتاً لهذا الدين الجديد عظماء القوم ، ورؤساء القبائل ، فقد أحسوا أنه ماجاء إلا ليقوض سلطانهم ، وليحد

من نفوذهم ، بل ليخفضهم ويرفع آخرين، فوطنوا العزم على محاربته بلا هوادة أو لين ، عسى أن يتمكنوا من أن يقضوا عليه قبل أن يعصف بهم .

خرج أتباع محمد للصلاة متسللين ، وخرج سعد مستخفياً قاصداً الشعاب لينضم لرفقائه ، وليصلى معهم خلف النبي ، بعيداً عن أنظار القوم . وما كاد سعد يترك داره حتى اقتفى أثره عين من عيون قريش ، وجعل يرقبه عن كثب ، ويتبعه كظله حتى انتهى إلى الشعب وانضم إلى محمد ورفاقه ، فعاد العين وأنبأ القوم باجتماع محمد وصحبه ومكانهم ، فخرج أبو جهل وبضع نفر إلى الشعب ، واختفوا خلف صخرة ، وأرهفوا السمع ، ومدوا أبصارهم ليروا ما يفعل هؤلاء الشاقون عصا الطاعة ، الخارجون على قومهم .

قام محمد تعلوه المهابة ، وتقدم فى وقار ليؤم المسلمين ، فاصطف أصحابه خلفه ملائكة بررة مطهرة ، وكبر وكبروا ، وجهر بصلاته فرتل القرآن بصوت ندى، فتغلغل فى أفئدة أصحابه، ونزل برداً وسلاماً عليهم، وبلغ صوته آذان المختبئين خلف الصخرة ، فسرت فى أجسامهم رعدة ، وأحسوا رهبة ، وطأطأوا أبصارهم ، ولزموا الصمت ، وسيطر الهدوء . وقضيت الصلاة. فجاس النبي يفقه أصحابه فى الدين ، فخاض فى اللات والعزى وهبل ، فغض المختبئون نواجذهم ، وفكروا أن يفاجئوا ذلك الصابىء وأنصاره ، ذلك الذى سب آلهتهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أذلة ، فأحجموا على مضض ، واستمر النبي فى أحاديثه ثم قرأ

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . سمع

سعد هذه الآيات فعلم أنها إنما نزلت فيه. فأطرق، ثم نهض وبعض أصحابه لقضاء حاجة، فمروا فى طريقهم بأبى جهل وصحبه، قال أبو جهل :

— ما يقول صاحبكم فى آلهتنا ؟

فقال سعد : يقول إنها أحجار صماء .

— خسئتم .

— بل خسئتم أنتم، ماهى إلا أحجار .

— وما آلهتكم ؟

فقال سعد : إن إلهنا واحد لاشريك له، خلق السموات بغير عمد ترونها، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم، وبث فيها من كل دابة وأنزل من السماء ماء، فأنبت بها من كل زوج كريم، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، بل الظالمون فى ضلال مبين .

— وما تلك الصلاة التى استحدثتم ؟

— لقد فرض الله علينا الصلاة، لنذكره فى اليوم خمس مرات فنشكره على ما أولانا من فضله ونعمه، وندعوه عسى أن يرضى عنا فنفوز بجنات عرضها السموات والأرض .

— وما تلك الحركات التى تأتونها فى صلاتكم كأنكم قردة نشيطة ؟

وضج أبو جهل ورفقاؤه بالضحك، وراحوا يتغامزون ويعيبون صلاة محمد وأتباعه، فلم يطق سعد صبراً فهجم على أحدهم، وتلاحم أصحاب محمد ورفقاء أبى جهل، وتناول سعد عظم بعير، فضرب به وجه الرجل فشجه، واستمرت الملحمة، وأصيب سعد بشج أذنه، وارتفعت أصوات المتلاحمين، وخشى أبو جهل ورفقاؤه أن يبلغ الصوت محمداً وصحبه فيخفوا لنجدة سعد ومن معه، فانسلوا من المكان ؛ وعاد سعد ورفقاؤه إلى النبى، فضمد له جرحه بيده، وقال له :

— فى سبيل الله دمك ياسعد .

الفصل الثانى

أتون الاضطهاد

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى
الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »
قرآن كريم

أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته ، وأن يجهر بدعوته ، فصدع بما أمر به ، ودعا قريشاً إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الأصنام ، فأعرضوا عنه ، فجعل يلاحقهم بدعوته ، ويعيب دينهم ، ويسب آباءهم ، ويسفه أحلامهم ، فنفروا له وتجهموا له ، واتفقت القبائل على أن تثب كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، يعذبونهم لعلهم يردونهم إلى دين آبائهم ، فأصاب المسلمين بلاء عظيم ، وأضحت مكة أتوناً من جحيم يقذف حمم البغض والمقت ، وتندلع منه ألسنة الكراهية والحقد لمحمد وصحبه ، وذاق المسلمون صنوف الاضطهاد ، وعبوا كأس العذاب ، وبلغ منهم الجهد ، ولكنهم ثبتوا على دينهم ينتظرون الفرج من الله بقلوب عامرة بالإيمان ، ممتلئة باليقين . رأى محمد تنكيل القوم بأصحابه ، فأمرهم أن يستعدوا للهجرة إلى الحبشة إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا .

أعد عامر بن أبى وقاص متاعه استعداداً للرحيل ، وقابل أخاه سعداً فدعاه للخروج مع المهاجرين ، فراراً بدينه من الكافرين ، فقال سعد :

— لا ياعامر ، لن أرحل وأترك رسول الله . لأبقين بجواره دواماً ، ولأصبرن على أذى القوم ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

— ألا تخرج يا سعد بعد ما رأيت من قومنا ؟ لقد اضطهدونا وعذبونا ومنعوا عنا الطعام ، فإن بقينا بعد ذلك أصابنا البوار .

— سأبقى يا عامر .

— لقد أمر النبي بالهجرة ، وسيهاجر عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ، فلا تحسبن الهجرة فرارا من الجهاد ، فقد تكون دعماً للدين ، وتوطيداً لأركانه ، وعاملا على نشره وانتشاره .

— لم أقل يا عامر إن الهجرة فراراً من الجهاد ، فهي الجهاد ، وهي الصبر على فراق الأهل والأوطان في سبيل الله ، ولكني لن أفارق رسول الله ما دام في عرق ينبض .

— اعلم يا سعد أن القوم قد تحجرت أفئدتهم ، وغلظت أكبادهم ، وأضحوا كالضواري المفترسة لا يتورعون عن الفتك بمن عاب دينهم ، ولا يحجمون عن افتراس من كفر بآلهتهم .

— أعلم ذلك يا عامر ، ولا يقين فلن يزيدني اضطهادهم إلا يقيناً .

— تذكر يا سعد ما فعل بنو مخزوم بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه . إني ما اختليت بنفسي قط إلا رأيت بني مخزوم يخرجون بهم ويجردونهم من ثيابهم إذا ما حميت الظهيرة ، فيعذبونهم برمضاء مكة ، وإني يا سعد لأراهم اليوم بوجوههم التي ارتسم عليها الألم والفزع ، وإني لأرى نظراتهم الزائغة ، ولأسمع أناتهم وتأوهاتهم وزفراتهم وأنفاسهم المبهورة فيهتز كياني ، وتتقطع نياط قلبي ، وإني لأرى يا سعد عدو الله أبا جهل وهو يصوب رمحه نحو أم عمار فيصيبها في موضع العفة فيردها قتيلة ، وإني لأرى الماء الساخن يصب على أبي عمار ليكفر بمحمد وإله محمد ، لا يا سعد لقد احتملنا الكثير ، فما علينا إلا ترك هذه البلدة الظالم أهلها .

— لقد استشهد أبو عمار وأمه في سبيل الله ، فهنيئاً لهما جنات النعيم .

ـــ أراك ياسعد عازماً على البقاء ، موطداً النفس على احتمال البلاء ، فابق فى رعاية الله ، أما أنا فسأهاجر الليلة مع المهاجرين .

ـــ ارحل يا عامر ، وليكلأكم الله بعنايته ، وليبدل خوفكم أمناً ، وقلقكم دعة وطمأنينة .

وهجع الكون ، وضرب الله على أصماخ أهل مكة فناموا ، وأغرقوا فى النوم ، ولم يشعروا بخروج المسلمين فى جوف الليل البهيم متسللين من دورهم ، متوجهين إلى المكان الموعود للالقاة النبى وتوديعه قبل الرحيل إلى الحبشة . وخرج سعد ليودع أخاه والمسلمين ، فألفى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتنقل بين القوم يوصيهم بالتجلد والصبر ، وقد ارتسم على وجوه الجميع العزم الصادق ، والإيمان العميق .

وراح المسلمون يتجهزون لرحلة طويلة ، وأخذ سعد يساعد أخاه فى حزم أمتعته ، ويجهزه بالميرة والماء ؛ وأخيرا التأم عقد المهاجرين ، واقتربت ساعة الرحيل ، فأحس الجميع لوعة وأسى ، وفاضت شجون النساء ، وانهمر الدمع من مآقيهن ، واحتبس الحزن فى صدور الرجال ، فما شاءوا أن تترجم عيونهم عما تفيض به الجوانح ، فتحجرت الدموع ، ولكن الحزن انعكس على وجوههم برغمهم ، وحان وقت الوداع ، فتعانق القوم ، والتصقت الصدور العامرة بالإيمان ، وخفقت القلوب الطافحة باليقين ، وأذن بالرحيل ، ففصلت العير ، وسارت القافلة التى تحمل خيرة المسلمين ، وأول المهاجرين ، وئيدة ، وئيدة ، تنطلق نحو الغيب المجهول ، تسير لا تعلم لها مصيراً ، معتمدة على الله ، محتسبة ما نالها من هوان ، وما ينتظرها من أهوال ، لله رب العالمين .

ووقف النبى وسعد بن أبى وقاص وأصحابهما يرقبون أبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم ، وآباءهم وأمهاتهم ، الذين اضطروا لهجرة الأوطان ، وترك الديار ، وفراق الأهل والخلان ، بقلوب شفها الوجد ، ونفوس

نال منها الأسى والحزن ، وابتعدت القافلة ، وراح الظلام يخيم عليها حتى غيبها فى طياته وحجبها عن أعين الأحبة المودعين ، فأحس النبى وصحبه حزناً ثقيلا ، حزن من ودع وحيده الوداع الاخير ، فطأطأوا الرءوس ، وسيطر على المكان سكون كسكون الرءوس ، وبقوا لحظة لا يبدون حراكا ، شاردى الأفكار ، مبلبلى الخواطر ، غائبى القلوب ، فقد انطلقت أفئدتهم تحوم حول الأحبة المهاجرين .

* * *

انفلق عمود الصبح ، ونشرت الشمس ضياءها على الكون ، واجتمع عظماء قريش فى الكعبة كعادتهم كل يوم ، وراحوا يتسامرون ؛ وفيما هم يتجاذبون أطراف الحديث ، بلغهم خبر تسلل المسلمين ليلا إلى الحبشة فى غفلة منهم ، فطار صوابهم ، وأفلت منهم زمام أمرهم ، فأصبحت صدورهم كمرجل يغلى بالحنق والغضب ، وارتسمت آيات الكآبة على وجوههم ، وحز الحزن فى نفوسهم لانفلات الصابئين من أيديهم ، ففكروا ، وأداروا قداح الرأى بينهم فيما يفعلون بمحمد ومن بقى معه ، فلم رأيهم على أن يسوموهم سوء العذاب ، لعلهم يعيدون إلى نفوسهم هيبتها التى تزعزعت بخروج المسلمين ليلا ، وهم منهم ساخرون .

لقد وطن رؤساء قريش العزم على مضاعفة الأذى لمحمد ولمن بقى معه ، ونسوا أن الاضطهاد سلاح المغلوب على أمره ، الموقن بانتصاره إن الحق ، وعدم استناده إلى المنطق والعقل والبرهان .

دعا رؤساء قريش دهماء القوم وراحوا يلقنون سمومهم فيهم ويوغرون صدورهم على المسلمين ، فانطلق الدهماء كالسائمة إلى دور الصابئين ، الخارجين على القبيلة ، الشاقين عصا الطاعة ، الحاملين لواء التمرد والعصيان ، الكافرين باللات والعزى ، وراحوا يحصبون دورهم بالحجارة ، ويسومونهم سوء العذاب ، فأوذى سعد واحتمل ، وضرب وعذب

ليرتد عن الدين الجديد إلى دين الآباء فتجلد وصبر، وزاد هذا الاضطهاد نفسه صفاء كما يزيد الانصهار المعادن نقاء.

الاضطهاد مستمر، والانضواء تحت لواء الدين الجديد مستمر، فزاد ذلك فى حنق قريش، فغالوا فى اضطهادهم، ولكن كيدهم ارتد إلى نحرهم، فلم ينالوا من بغيتهم شيئاً، فما وقفت الدعوة الجديدة عن السير قدماً، وما ارتد الذين اعتنقوها إلى دين قومهم، بل ازدادت أنصاراً، ووجدت لها مؤيدين وأعواناً.

فكر دهاة قريش فى سلاح جديد يحاربون به محمداً غير سلاح عون الذى فل، فاقترح أحدهم أن تقاطع قريش المسلمين، فلا يبيعونهم ولا يبتاع منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، فصادف هوى فى نفوس القوم، فوافقوا عليه، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة، وضربوا حول شعب أبى طالب نطاقا من الحراس يمنعون المسلمين من الخروج كما يمنعون الناس من الدخول أو الاتصال بهم، وحسب القوم أن هذا هو الحل المنشود: والسلاح البتار الذى سيقضى على المسلمين، فباتوا والطمأنينة ترفرف عليهم والسكينة تختل قلوبهم.

* * *

حوصر المسلمون رجالا ونساء وأطفالا فى شعب أبى طالب، وضيق الحصار عليهم، فنفد ما كان عندهم، وخوت بطونهم، وزاغت عيونهم، وتفككت أوصالهم، وأنت نساؤهم، وبكى صغارهم، وراحوا يصرخون يطلبون الطعام، فكانت دموع النساء تنهمر، وأكباد الرجال تتفتت، وتطغى آلام النفوس على آلام الجوع. إنهم يرون أبناءهم أمام عيونهم يتضورون جوعاً، إنهم يرون أبناءهم فلذات أكبادهم، وجوههم وأرواحهم، لا يقرون، يتلوون ويئنون، ويبكون ويصرخون، ويتوسلون ويضرعون إليهم أن يمنحوهم كسرة خبز يمسكون بها رمقهم،

ويبعدون شبح الجوع الذى أقلقهم ، ولكن أنى لهم هذه الكسرات التى عزت ؟ ليتهم يستطيعون استبدال أرواحهم بكسرات تلطف من آلام أبنائهم الذين قضت قريش الظالمة الجائرة بتجويعهم وتعذيبهم بلا ذنب جنوه، أو إثم اقترفوه

وأقبل الليل ، وحاول سعد أن ينام ، ولكن الجوع راح يطارده ويقض مضجعه ، فما استطاع أن ينام على الطوى ، فنهض وخرج يقطع الشعب مترنحاً ، فألفى الناس سهداً من الجوع ، فجعل يوصيهم بالصبر ، ثم أحس بساقيه لاتقويان على حمله ، فجلس على حجر ، وعضه الجوع بأنيابه ، وأحس بغشاوة على عينيه وبالوهن يدب فى جسمه ، فمال وتناول حجراً شده على بطنه، ولكن ذلك لم يخفف من آلام الجوع ، فأصابه دوار وخور، فاستلقى على الأرض وتمدد ، ومر الوقت وئيداً ، ورفع سعد رأسه فلمح شجرة قريبة ، فنهض وحمل نفسه حملا حتى بلغها ، وأخذ يقطف أوراقها ويأكلها ليسكت صراخ الجوع المروع المنبعث من جوفه .

ضيق الجوع الخناق على المسلمين ، واستبد بهم ، فأضناهم وعذبهم ، وأضعف أبدانهم ، وغير ألوانهم ، ولكنه لم يقو على أن يزعزع إيمانهم ، أو يضعف نفوسهم . وحان وقت الصلاة فوقفوا جميعاً خلف النبى يصلون ، يقيمون بالجهد صلبهم ، ويغالبون بعزائمهم الماضية ضعفهم ، وقضيت الصلاة بعد أن نال منهم التعب والنصب والمخمصة ، فاستلقوا على الأرض مبهورى الأنفاس ، زائغى العيون ، يتألمون ويتوجعون ، وزاد فى ألمهم صياح الأطفال وصراخهم ؛ وسار الزمن متثاقلا ، وانقضى الوقت متباطئاً، فما الوقت بالنسبة إليهم ، فنهارهم عذاب، وليلهم سهاد . واحتضر النهار ، واستوى الليل على عرشه ، وبلغ الجهد بالمسلمين غايته ، ودب الضعف فى جسم سعد فراح فى غيبوبة وإغماء ، واستيقظت

نفسه بعد حين ، فجعل يصارع الضعف ويغالبه ، وشدت عزيمته أزره ، فاستطاع أن يرفع رأسه وجاهد حتى استوى قاعداً ، ومد بصره فى الظلام فرأى أشباحاً تتراقص ، ودنيا تتمايل ، فأغمض عينيه ، وثبت يديه فى الأرض خشية أن تميد به ، وهمس الريح فى أذنيه بصوت كصوت البعير ، ففتح عينيه ومد بصره ، فرأى فى الظلام شبحاً يتحرك لم يستطع أن يميزه ، وأخذ الشبح يقترب منه رويداً رويداً ، ويتشكل شيئاً فشيئاً حتى صار بعيراً محملا بأحمال ، فدبت الحياة فى نفس سعد ، وصبت فيه القوة ، وانقلب الضعف فتوة ، فهب واقفاً وهرول نحو البعير وراح يسوقه أمامه حتى بلغ النبى .

أناخ النبى البعير فألفاه يحمل طعاماً طيباً ، وانتشر خبر الطعام فى الشعب انتشار الريح ، فتوافد المسلمون على النبى ، فأعطى كلا طعامه ، فأكلوا وشبعوا ، وانهزم الجوع وتقهقر ، ثم مالبث أن جمع فلول جيشه ، وسوى كتائبه ، واستعد ليشق هجوماً آخر أقسى وأوجع من هجومه الأول .

امتلأت البطون ، فأغمضت العيون ، ونام الأطفال والنساء والرجال ملء الجفون ، وبقى سعد وبضعة نفر من الرجال يتسامرون ويأخذون بأطراف الحديث ، فدار حديثهم ، حول البعير ، وجعلوا يتساءلون عمن ساقه إليهم ، فعلموا أن فى قريش أناساً يهتمون بهم ، ويعطفون عليهم ، ويرجون لهم النجاة ، فاستراحت نفوسهم ، وقرت عيونهم ، وأيقنوا أن الله يرعاهم برحمته ، ويكلأهم بعنايته ، وأنه سينصرهم ويعلى كلمته ، وينشر دينه ، ولو كره الكافرون .

نفد ما كان عند محمد من زاد ، فأعاد الجوع سيطرته ، واحتل شعب أبى طالب ، وصب على المسلمين جام غضبه ، وأنزل بهم سوط عذاب ، واقتربت الأشهر الحرم ، تلك الأشهر التى تنام فيها الخصومات ، وتحقن فيها الدماء ، فراح سعد بعد الأيام والليالى

الباقيه على حلولها ليتخلص المسلمون من هذا الحصار المضروب ، فضاعف ألم الانتظار آلامه ، وزاد فى عذابه ، وتلكأ الزمن فى سيره ، وأخيراً أطل قمر الشهر الجديد معلناً ابتداء الأشهر الحرم ، فتجاوبت صيحات الفرح فى جنبات الشعب ، لقد رفع الحصار عن المسلمين .

وأقبل الحجيج إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بالكعبة بيتهم المقدس ، وخرج النبى من الشعب يعرض نفسه على الحجاج ، وأخذت قريش تبذل جهدها لتمنع اتصاله بالوافدين ، فكان القرشيون ينصحون الناس بعدم الاستماع إلى محمد الساحر خشية أن يصيبهم شىء من سحره . فكان فى التحذير دعاية وأى دعاية ، فاستمع الناس إليه ، ودخل بعضهم فيما يدعو إليه ، وباءت قريش بفشل عظيم .

* * *

ودارت عجلة الزمن سريعاً ، وأوشكت الأشهر الحرم على الانصرام ، فأحس سعد جزعاً شديداً ، وحاول أن يبتاع طعاماً يخزنه للأيام العجاف ، أيام الشدة والضيق ، أيام الحصار الشديد والمقاطعة ، ولكنه لم يجد من يبيعه شيئاً ، وانقضت الأشهر الحرم ، واستأنف الحصار ، وعاد الجوع يبطش بالمسلمين .

استبد الجوع بهم ، فترنح سعد مع المترنحين ، وأصيب ببلاء شديد وكرب وضيق ، وبلغت روحه الحلقوم ، وتطلع إلى السماء مع المتطلعين ، يلتمس العون والفرج ، ودخل أبو طالب على النبى فقال رسول الله .

— يا عم إن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها اسماً هو « الله » إلا ثبتته فيها ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان .

فقال أبو طالب :

— أربك أخبرك بهذا ؟

فقال رسول الله : نعم .

فقال أبو طالب : فعلام نحبس ؟ !

وخرج إلى الكعبة ليقابل أشراف قريش ولينبئهم أن رب محمد قد مزق الصحيفة الظالمة الجائرة ، فلا عهد ولا ميثاق ، ولا ظلم ولا قطيعة. وانتشر خبر تسليط الأرضة على الصحيفة بين المسلمين فى الشعب ، فانتشت النفوس واطمأنت القلوب ، وانتظر الناس سفارة أبى طالب انتظار الغريق للغوث ، وعاد أبو طالب فأسرع سعد إليه مع من أسرع بقلب يتنازعه الرجاء واليأس ، وتطلع إلى وجهه ليستشف ما فى نفسه ، فألفى البشر يشيع فى محياه ، فعلم كل شىء ، ولكنه أرهف أذنيه فسمع أبا طالب يهتف :

— مزقت الصحيفة ، ورفع الحصار .

فهتف سعد مع الهاتفين : « الله أكبر ، الله أكبر » ! وجلجل الصوت وارتفع عالياً قوياً ، فزلزل جنبات مكة ، وشق الجوزاء وبلغ عنان السماء .

السهم الاول

رفع الحصار عن المسلمين ، واستأنف محمد دعوته ، وترادف العذاب على المسلمين وتتابع ، فنال سعد قسطاً كبيراً من الأذى والاضطهاد ، وأسلم أهل يثرب ، فغضبت قريش وازدادت طغياناً وظلماً ، وكثر التنكيل والتعذيب ، فأمر الرسول أصحابه بالخروج إلى يثرب ، فاتفق سعد وبلال وعمار على الخروج ، فلما سجا الليل وهدأ كل شيء ، خرجوا من دورهم متسللين ، وامتطوا رواحلهم ، وانطلقوا من مكة أتون العذاب إلى يثرب مهد الهدى والرشد ، انطلقوا تاركين خلفهم أهليهم وعشائرهم الذين تنكروا لهم ، ميممين صوب إخوان ألان الله قلوبهم ، وشرح لهم صدورهم ، انطلقوا من مكة مضحين بمصالحهم ، مهاجرين لله وفي سبيل الله ، انطلقوا مطأطئي الرءوس ، منقبضي الصدور ، وما دار بخلدهم أنهم عما قريب سيعودون الى مكة شامخي الأنوف ، رافعي الهام ، وأن سعداً سيدخلها ظافراً منتصراً حاملا راية المهاجرين ، وأن صوت بلال الصداح سيتجاوب في جنباتها ، وسينساب في أجوائها رقيقاً رقة النسيم ، عذباً عذوبة الماء السلسبيل ، يدعو الناس للصلاة ، فيهرع الجميع خاشعين ممتلئين داعي السلام . انطلقوا وما يدرون ما يدخر الدهر لهم من أمن بعد خوف ، وامتلاء بعد مسغبة ، وعز بعد ذل ، ورفعة وسؤدد وسلطان .

وتتابعت هجرة المسلمين ، وأقبل على المدينة النبي وأبو بكر ، فتصرم عهد احتمال أذى قريش ، والصبر على مكروهها ، وانقضى زمن التنكيل والتعذيب ، ولاحت في الأفق القريب تباشير عهد جديد ، عهد مطاولة

المسلمين للكافرين ، عهد القوة والفتوة ، عهد الكفاح والنضال لدعم الدين الجديد ونشر سلطانه فى الخافقين .

وأقبل الليل ونشر رداءه الأسود على الكون ، وتلألأت فى صفحته الداكنة نجوم خافتة ، فبدا كزنجية تحلت بجمان ، وعاد الناس إلى دورهم ، وبقى النبى وحده ، وحاول النوم ولكنه لم يهجع ، فدعا عائشة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث . قال النبى فيما قال :

— ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة

واستأنفا حديثهما ، وبينما هما يتحادثان إذ سمعا خشخشة سلاح فقال النبى :

— من هذا ؟

— سعد بن أبى وقاص .

— وما جاء بك ؟

— وقع فى نفسى خوف على رسول الله فجئت أحرسه .

فدعا له النبى ، واتجه إلى مضجعه ونام ملء جفونه ، ولبث سعد الليل جميعه يحرس رسول الله .

استقر المهاجرون فى يثرب ، واستتب الإسلام بها وقويت شوكته ، فرأى النبى أن يبعث السرايا إلى الحجاز ليتسمع أخبار قريش ، وليعلم ما تخبئه له من مفاجأة ليكون على بينة من أمرها حتى لا تدهمه وهو عنها غافل ، فبعث عبيدة بن الحرث فى ثمانين راكباً من المهاجرين ، فخرجت السرية وبها سعد بن أبى وقاص ، وراحت تجد فى السير ، وتتابع عليها الليل والنهار حتى بلغت ماء الحجاز بأسفل ثنية المرة ، ولمح سعد جمعاً غفيراً من قريش عند الماء ، فتذكر إخراجهم له من داره ، وإبعادهم إياه عن وطنه ، فجرى الدم حاراً فى عروقه ، وأحس رغبة فى قتالهم

فوضع سهما فى قوسه ورمى به ، فانطلق أول سهم فى الإسلام يشق الفضاء ، منذراً الكفار بغارات شعواء وحرب مذكار ، ووضع سهما آخر فى قوسه وتأهب لإطلاقه ، ولكنه لمح القوم ينصرفون لا يبغون قتالا ولا نزالا ، فوضع سهمه ، ثم قفل عائداً إلى يثرب مع السرية بعد أن أطلق السهم الأول.. الذى ستتبعه سهام وسهام ، قبل أن ترفرف راية الإسلام على العالمين .

الأيام تمر ، وسواعد المسلمين فى يثرب تشتد ، وتاق النبى إلى معرفة ما يدور فى مكة ، فدعا عبد الله بن جحش وبعثه فى سرية مع ثمانية رهط من المهاجرين ، وكان سعد منهم ، وكتب النبى لعبد الله كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وانطلقت السرية صوب الحجاز ، ولما انصرم الأجل المحدود فض عبدالله الكتاب وقرأه ولما فرغ منه قال :

ـ سمعاً وطاعة .

ثم التفت إلى أصحابه وقال :

ـ قد أمرنى رسول الله ان أمضى إلى نخلة (موضع) ، أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله .

انطلق عبد الله ورهط المهاجرين ، وأغذوا فى السير حتى بلغوا نجران فنزلوا بها ليستريحوا ، ثم استعد عبد الله بن جحش لاستئناف زحفه ، فتفقد رجاله فلم يجد سعداً ولا عتبة بن ربيعة فراح يبحث عنهما فلم يجد لهما أثراً ، وأخيراً لم يجد بداً من الانطلاق إلى ما أمرهم به رسول الله تاركا سعداً وعتبة ، فأمر رجاله بالسير إلى نخلة ، ولما بلغوها نزلوا بها فمرت بهم عير تحمل تجارة لقريش ، فتذكروا فى مهاجمتها ،

ولكنهم تذكروا أنهم فى الأشهر الحرم ، فأحجم بعضهم ، ورأى بعضهم أن لابد من الهجوم ، وارتفع الجدال بينهم ، قال أحدهم :

— لقد آذونا وعذبونا وحاولوا فتنتنا عن ديننا ولم يرعوا لناحرمة ، فلم نرعى لهم حرمة ؟

وقال آخر :

— والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ويمتنعن عليكم .

ووافق الجميع على القتال ، ورمى أحدهم سهماً فأردى قرشيا قتيلا ، وهجم المسلمون على القافلة ، وأسروا رجلين ، وغنموا ماتحمل العير ، ثم رجعوا إلى يثرب ولم يعد معهم سعد ولا عتبة ، فراح القوم يسألونهم عنهم فقالوا : « لقد اختفيا عند نجران ولم نعثر لهما على أثر » ولما رأى رسول الله الأسيرين والغنائم قال :

— ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم .

ورفض أن يأخذ نصيبه من الغنائم ، ثم نزل القرآن يبرر عمل السرية ، وبعثت قريش فى فداء الأسيرين فقال رسول الله :

— لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا — سعد وعتبة — فإنا نخشاكم عليهما ، فإن قتلتموهما نقتل صاحبيكم .

وأقبل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن ربيعة ، فانجفل الناس إليهما ، وراحوا يسألونهما عما حدث لهما فقال سعد :

— لما بلغنا نجران ضل بعير لى ولعتبة ، فخرجنا نتعقبه ، فعثرت قريش علينا فأسرتنا .

فلما علم أن الرسول على صاحبيه أطلق سراح الأسيرين .

الفصل الثالث

يوم عظـــــيم

« لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله
لعلكم تشكرون » قرآن كريم

سل سيف الفجر من غمد الغلس ، وارتفع صياح الديكة فهتك غلالة السكون، ثم هدأ كل شيء، واعتلى بلال مسجد الرسول، وأرسل صوته الندى الحنون يدعو الناس إلى صلاة الفجر، وداعب صوته العذب أذن سعد فهب من نومه وتوضأ ، ثم خرج إلى المسجد فلفحته نسمة عليلة أنعشته ، وراح يقطع الطريق بين داره والمسجد بخطى واسعة وهو مرهف السمع لصوت بلال الصداح .

وقضيت الصلاة ، وجلس سعد إلى النبي ، وأخذا بأطراف الحديث في دعة وهدوء حتى تنفس الصبح ، وبزغت الشمس ، وأقبل رجل على الرسول وقال :

إن أبا سفيان بن حرب مقبل من الشام في عير لقريش عظيمة .

فأطرق رسول الله هنيهة ، ونظر سعد إليه فتيقن من أنه قد عقد العزم على أمر ذي بال ، ثم رفع النبي وجهه ، ودعا المسلمين إليه وقال :

— هذه عير قريش فيها أموالكم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها.

أضحت يثرب في حركة دائبة ، وأخذ الناس يتوافدون في عدة القتال ، وأقبل سعد بن أبي وقاص على بعيره ، لابساً جبة من صوف ، وارتسم العزم الصادق على وجهه ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين اضطهدوه

وآذوه وعذبوه وأخرجوه من دياره ، إنه يتوق لملاقاة قريش الذين فرقوا بينه وبين أهله وخلانه . واكتمل عقد المسلمين: فأمرهم الرسول بالمسير على بركة الله ، فانطلقوا وكانوا يتعقبون بعيرهم ، وانطوت الأرض تحت أرجلهم ، وأخيراً نزلوا بالقرب من ماء بدر ، وقد بلغ أبوسفيان أن محمداً قد استنفر أصحابه له، فأرسل إلى مكة يستنفر قريشا إلى أموالهم .

وبلغ النبي مسير قريش ، فاستشار الناس فقالوا له :

ـــ امض لما أراك الله فنحن معك .

وعسعس الليل ، ونشر ألويته السود على المكان ، فبعث رسول الله علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فانطلقوا تحت جنح الليل حتى أمسوا على قيد خطوات من ماء بدر ، فهمس سعد :

ـــ انظرا هذان ساقيان لأبي سفيان .

فتمتم الزبير :

ـــ لنأت بهما رسول الله .

فانسلوا من مكانهم ، وساروا على حذر ، ثم قبضوا على الساقيين وعادوا بهما إلى النبي ، فوجدوه يصلي ، فسألهما سعد :

ـــ سقاة من أنتما ؟

ـــ نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء .

فقال علي : كذبتما .

فقالا : لا ، لم نكذبكم القول .

فقال سعد : أنتما ساقيان لأبي سفيان .

فقال الزبير : الصدق الصدق ، وإلا ضربناكما حتى تعترفا .

فقالا : نحن سقاة قريش .

فضربوهما وأوجعوهما ، فصاح الساقيان :

— نحن سقاة أبي سفيان ، نحن سقاة أبي سفيان .

فتركوهما ، وأيقنوا أن عير قريش وتجارتهم باتت فى قبضة أيديهم .

وأتم رسول الله الصلاة ، فالتفت إلى سعد وعلى والزبير وقال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش .

وأقبل رسول الله على الناس وقال :

— هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

أتى المسلمون أدنى ماء من القوم ، وبنوا حوضاً على الماء ، وملأوه ليشربوا ولايشرب الكافرون ، وبنوا عريشاً للنبي ، واصطف المسلمون ، ووقف سعد فى الصف يتحفز للقتال ، ولمح قريشاً مقبلة تجرى الدم حاراً فى عروقه ، ووقف كأسد كاسر يتحفز للانقضاض على غريمه ، وانتظر الإذن بالقتال بصبر نافد : إنه يتوقد لقتال أعداء الله وأعدائه : وصك أذن سعد قول النبي :

— اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك . اللهم نصرك الذى وعدتنى .

فاتقد حمية وحماسة : وهمت قريش بالزحف ، فأمر النبي المسلمين أن يمنعوهم بالنبل من الاقتراب منهم ، فأخذ سعد يسدد سهامه الفتاكة ، ودخل النبي وأبو بكر العريش ، وراح المتحاربون يتراشقون بالسهام ، ثم خرج النبي يحرض القوم ، قال :

— والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

فاستل سعد سيفه ، وانتظر الإذن بالهجوم لينقض على الكافرين ، فإما نصر وعز ، وإما استشهاد فى سبيل الله وجنات عرضها السموات والأرض .

وهتف رسول الله : شدوا .

فصاح المسلمون : أحد . . . أحد .

وهجموا على الكافرين كالليوث الكواسر ، وتصافحت السيوف ، وتبودلت الضربات ، وفغرت المنايا أفواهها ، وهجم سعد على قريش كالأسد عادياً ، وأطل الموت من سيفه ، وراح يهزه ويضرب الكفار ، صائلا جائلا ، ووقع بصره على النبي وسط المعمعة شاهراً سيفه ، ضارباً به المشركين ، فازدادت حماسته ، وكر على الأعداء وهو يهتف : « أحد . . . أحد » .

وثار النقع ، واختلط المسلمون بالكافرين ، وحمى وطيس القتال ، وراح صناديد قريش يسقطون صرعى تحت ضربات أبطال المسلمين ، وحاول الباقون النجاة من تلك السيوف البتارة ، فولوا الأدبار ، فكانت الهزيمة ، وتعقبهم المسلمون ، وأسروا ناساً كثيرين ، وأسر سعد أسيرين ، وانجلت أول معركة فى الإسلام عن انتصار باهر عظيم ، ثم راح المسلمون يجمعون الغنائم فرحين مستبشرين ، وعاد سعد بأسيريه إلى حيث كان الرسول الأمين .

عاد المسلمون إلى يثرب ظافرين منتصرين ، وكانت أنباء الانتصار المبين قد بلغت من فى المدينة ، فخرجوا فرحين مهللين مكبرين يهنئون إخوانهم بنصر الله ، ثم انصرف سعد إلى دارة وخلع جبته الصوف ، وطواها برفق ، ووضعها فى مكان أمين ، تخليداً لذكرى يوم عظيم .

الفصل الرابع

الصابرون

« ارم فيها الغلام الخزرج فداك أبي وأمي »
حديث شريف

انطلق سعد إلى المسجد ، وفي الطريق بلغه خروج قريش لقتال المسلمين ، ونزولهم بالقرب من أحد ، فأسرع ليرى ما يفعل الرسول ، وما إن دلف من باب المسجد حتى رأى النبي والناس حوله ، فاتجه نحوهم فسمع النبي يقول :

— إني رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً لي يذبح ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل .

فطأطأ الحاضرون الرءوس ، وسيطر السكون برهة إلى أن قال سعد :

— نزلت قريش بالقرب منا فماذا نحن فاعلون ؟

فقال النبي : إن رأيتم أن تمكثوا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

فصاح صائح : يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا .

فقال عبد الله بن أبي : « يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا

إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا .

فصاح آخر : لنخرج إليهم ، ولنقاتلهم ولا نقعد عن الجهاد .

وصاح ثالث : لو دخلوا علينا وأصابوا منا ، لم تقم لنا بعدها قائمة أبداً . الخروج الخروج !

وارتفعت الأصوات من كل جانب تحبذ الخروج للقتال ، فدخل النبى داره ، والتفت سعد إلى القوم وقال :

ـــ استكرهتم رسول الله ولم يكن لكم ذلك .

فندم الناس ، ولما خرج النبى لابساً لامته ، انحفلوا إليه وقالوا :

ـــ يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد .

فقال النبى : ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل .

تجهز سعد للقتال ، فتدجج بالسلاح ، وخرج مع المسلمين للقاء قريش ، وانطلقوا حتى نزلوا الشعب من أحد . فجعل النبى ظهره وعسكره إلى أحد ، وأجلس جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبيد الله بن جبير وقال له :

ـــ لا تبرحوا . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا .

واصطف الجيشان ، وبرز سباع من بين صفوف قريش ، وصاح :

ـ هل من مبارز ؟

فخرج إليه حمزة وقال :

ـــ يا سباع . أتحاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟

ثم شد عليه وضربه ضربة فأرداه قتيلا ، وبرز ابن أبى طلحة من صفوف المشركين ، وهو صنديد من صناديد قريش وصاح :

— يا أبا القاسم من يبارز ؟

فلم يخرج له أحد ، فصاح ثانية : يا أبا القاسم من يبارز ؟

فلم يخرج له أحد من المسلمين ، فصاح : يا أصحاب محمد ، زعمتم أن قتلاكم فى الجنة ، وأن قتلانا فى النار ، كذبتم واللات ، لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلى بعضكم .

فخرج إليه على بن أبى طالب ، وتبادلا الضربات ، وشد عليه على كأسد كاسر ، فأحس ابن أبى طلحة بانهزامه ، وأن علياً سيقتله فاستقبله بعورته ، فتركه على وعاد إلى صفوف المسلمين .

وأمر رسول الله أصحابه أن يشدوا ، فهتفوا : « أمت . . . أمت » واندفعوا كالبحر الهائج ، والتقى الجمعان ، وانقض سعد على ابن أبى طلحة وكان يحمل لواء المشركين انقضاض الصاعقة وعاجله بضربة من سيفه فبترت يده ، فحمل ابن أبى طلحة اللواء بيده الأخرى ، فضربه سعد ضربة ثانية أطاحت بها ، فضم ابن أبى طلحة اللواء بذراعيه إلى صدره ، فسدد سعد إليه ضربة هائلة سقط بعدها ابن أبى طلحة يخبط فى دمه ، وسقط لواء المشركين على الأرض ، وراح سعد يحصد الكفار بسيفه ويهتف : « أمت . . . أمت » وسمع أنيناً خلفه فالتفت فرأى حمزة قد أصيب بحربة خرجت من بين وركيه ، فثارت ثائرته ، وكر على قريش عازماً على أن يستأصلهم قتلا ، وراح المسلمون يعملون سيوفهم فيهم حتى انهزم الكفار ، وابتدأ نساؤهم يشددن فى الجبل ، رافعين عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، وأسرع المسلمون يجمعون الغنائم ، فلما لمح الرماة ذلك تصايحوا :

— الغنيمة الغنيمة .

فقال عبد الله بن جبير :

— عهد إلى صلى الله عليه وسلم ألا تبرحوا .

— لقد انهزم القوم ، وابتدأ إخواننا فى جمع الغنائم .

— لا تبرحوا .

فأبوا و انصرفوا ليجمعوا الغنيمة ، وخلوا ظهور المسلمين ، فظهر خيل الكافرين على الجبل خلف المسلمين ، فالتفت المسلمون نحو الصوت مذعورين فرأوا خيل قريش تنقض عليهم كصقور كواسر ، فوقع بينهم هرج شديد ، وراحوا يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت ، وسقط المسلمون صرعى ، وراح سعد يقاتل وهو يخترق الصفوف باحثا عن النبى ليذب عنه حتى النفس الأخير ، فوجده قد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، فوقف بجواره ، وراح يسدد سهامه إلى الكافرين ، فالتفت إليه النبى ، وقال :

— ارم أيها الفتى الحزور فداك أبى وأمى .

فجعل سعد يرمى سهامه ، حتى كسرت القوس فى يده ، فناوله النبى قوسا أخرى وقال :

— اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته .

وأقبل طلحة بن عبيد الله ، وانضم إلى سعد فى الذود عن الرسول ، فوقف بين يديه مجوبأ (مترسا) عليه بحجفة له ، وكان طلحة راميا شديد النزع ، ومر رجل بجعبة من النبل فقال له النبى :

— انثرها لطلحة .

وأقبل أبو دجانة ، وانضم إلى النبى وصحبه ، ولما رأى كثرة النبل المصوب إلى الرسول جعل من نفسه ترسا يقى النبى ببدنه ، فأخذ النبل يرشق فى ظهره ، وهو منحن على الرسول حتى أصبح كالقنفذ وهو لا يبارح مكانه .

وراح سعد وطلحة يدافعان عن النبى دفاع الأبطال الصناديد ، وأشرف النبى ينظر إلى القوم ، فقال له طلحة :

— بأبي وأمي ، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك .

وأحس سعد بالعطش ، فالتفت فرأى عائشة تحمل قربة على متنها تسق القوم ، فأشار إليها فأقبلت وأفرغتها في فيه ، ثم رجعت لتملأها ، واستأنف سعد قتاله ، فناوله النبي سهماً ما له نصل ، فأخذه سعد والتفت إلى النبي ، فقال له النبي :

— ارم به .

فوضعه في قوسه وأطلقه ، وجعل يطلق السهام حتى بلغ ما أطلقه ألف سهم .

ولمحت أم عمارة انهزام المسلمين وثبات سعد وطلحة مع النبي ، فألقت بالقربة التي كانت تحملها تسق منها القوم ، وتناولت سيفاً ، وانحازت إلى رسول الله تذب عنه مع سعد وطلحة ، وترمي عن القوس ، وأقبل رجل من قريش يصيح :

— دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له ، فضربها بسيفه فخاصت الجراح إليها ، فلم يثنها ذلك ، فهجمت عليه وضربته ضربتين فأدبر ، وصرخ صارخ : « ألا إن محمداً قد قتل » فقعد المسلمون عن القتال ، وهدأت المعركة ، وعثر كعب بن مالك على النبي فصاح :

— يا معشر المسلمين ، أبشروا . . هذا رسول الله .

فأشار له رسول الله أن أنصت ، وأقبل عمر ، وأبو بكر ، وعلي ، والزبير ، فرأوا رسول الله ، ففرحوا بلقائه ، ونهضوا به ومعهم نحو الشعب ، وسار سعد مع النبي خائر القوى يتفصد العرق منه ، يكاد يسقط من شدة الأعياء .

وصاح أبو سفيان :

— أفى القوم محمد ؟

فقال النبى : لا تجيبوه .

— أفى القوم ابن أبى قحافة ؟

— لا تجيبوه .

— أفى القوم ابن الخطاب ؟

فلم يبلغ أذنيه إلا صدى صوته ، فقال :

— إن هؤلاء قتلوا ، لو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال :

— كذبت ياعدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك .

فصاح أبو سفيان :

— أعل هبل .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

— أجيبوه .

— وما تقول ؟

— قولوا : « الله أعلى وأجل » .

قال أبو سفيان :

— لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال النبى :

— أجيبوه .

— ما نقول ؟

— قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

فقال أبو سفيان :

— يوم بيوم بدر والحرب سجال .

وانصرف المشركون ، وبقى المسلمون فى الشعب ، وأذن لصلاة

الظهر ، فصلى النبي قاعداً من الجراح ، وصلى المسلمون خلفه قعوداً ، ولما قضيت الصلاة ، عاد سعد إلى يثرب وفى نفسه حزن ثقيل لما أصابهم من كرب وبلاء . وفى صبيحة اليوم التالى ، بددت الشمس ظلمة الدجى ، وبهرت أنوار المرج ، وارتفع صوت المنادى يدعو المسلمين للخروج فى أثر قريش ، فخرج سعد وانضم إلى إخوانه وانطلقوا حتى نزلوا حمراء الأسد ثلاثة أيام ، ولم يلقوا كيداً فقفلوا عائدين إلى يثرب . واستمر سعد حزيناً مغيظاً لانتصار قريش إلى أن دخل المسجد يوماً وسمع النبي يرتل :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

فأحس سعد كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن صدره وشعر بالراحة تشيع فى نفسه ، وبالطمأنينة تسكن قلبه .

الفصل الخامس

الخنـــــدق

« اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب » حديث شريف

دارت عجلة الزمن ، وقويت شوكة المسلمين ، ولم تخمد شوكة قريش ، واستمرت العداوة بين الفريقين شديدة لا تلين لها قناة ، فكان القرشيون يتربصون بالمسلمين الدوائر ، وكان المسلمون يتتبعون حركات أعدائهم خشية أن يفاجئوهم وينالوا منهم ما يبغون ، وفى يوم قابل سعد جابر بن عبد الله فى الطريق ، فسلم عليه ، وأخذا بأطراف الحديث ، فقال جابر :

ـــ أبلغك ما فعله اليهود ؟

ـــ وما فعلوا ؟

ـــ خرج سلام بن أبو الحقيق النضرى ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ، ونفر من بنى وائل ، حتى قدموا على قريش فى مكة فدعوهم إلى حربنا .

ـــ من أبلغك هذا ؟

ـــ ترامت الأنباء إلى هنا .

ـــ وما فعلت قريش ؟

ـــ قال اليهود للقرشيين : إنا سنكون معكم على المسلمين حتى نستأصلهم .

فقالت قريش : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم

بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

— بم أجابوهم ؟

— قالوا لهم : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق .

— أوقالوا ذلك ؟ ! إنهم لفي ضلال مبين ، ما كنت أحسب أن الحسد يبلغ بهم هذا ، أيقولون إن الذين يعبدون الأصنام أجدى من الذين آمنوا سبيلا ؟

— استجابت قريش إلى هذه الدعوة وخرجت يقودها أبوسفيان .

— إذن سنقاتل قريشاً ونقتص ليوم أحد .

— مهلا . ليت الأمر اقتصر على قريش .

— وما هنالك ؟

— لم يكتفوا بتأليب قريش علينا ، بل جاءوا غطفان كذلك ودعوهم إلى حربنا .

فطأطأ سعد رأسه ، وراح يفكر برهة ، ثم تمتم :

— خطب نازل .

وانطلقا حتى إذا أتيا رسول الله وأصحابه ألفيا صمتـــا شاملا ، وأبصاراً شاردة ، لقد كانوا يفكرون فيما يفعلون وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكالبوهم من كل جانب . وقال أحد المسلمين :

فلنواجههم ولنقاتلهم .

فقال آخر :

— ليس هذا بالرأى ، كيف نواجه العرب ونحن قلة ؟ لن نستطيع لهم صداً .

— وما نفعل إذن ؟

فأطرق الجميع يفكرون فيما يفعلون ، ثم رفع سلمان الفارسى رأسه وقال :

ـــ أرى يارسول الله أن نضرب على المدينة خندقاً ، فيصبح بيننا وبين المشركين فلا يستطيعون اقتحامه /

فرفع المسلمون رءوسهم ، وانبسطت أسارير وجوههم ، وسرى الأمل الدفىء فى صدورهم ، فقد هداهم الله إلى الرأى السديد ، وألهم سلمان ما ألهم ليحميهم من عدو الله وعدوهم .

ونهض النبى خفيفاً ، وتناول فأساً وضرب به لحفر الخندق ، فراح المسلمون يقتدون به ، وتناول سعد فأساً ومسحاة ، وراح يضرب الأرض بقوة ، ويحمل التراب على عاتقه ، وتفصد العرق منه على الرغم من برودة الجو ، فقد كان الوقت شتاء ، وتصرم النهار ، وأحس بعض المسلمين التعب يدب فى أوصالهم ، والجوع يعض بطونهم ، فراحوا يختلقون الأعذار للفرار ، وبقى سعد مع النبى لا يحفل بالتعب ولا يأبه للجوع ، فقد وجد فى طاعة الرسول راحة لنفسه ، وخوت بطنه فتناول حجراً وشده عليها ، ومالت الشمس نحو الأفق ، ونال النصب والكلال من الرجال فتراخوا فى عملهم ، وبلغت القلوب الحناجر ، فأخذ النبى يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب :

لاهمّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فدب النشاط فى المسلمين ، وراحوا يعملون حتى توارت الشمس فى الأفق .

وبزغت شمس اليوم التالى فاتجه سعد إلى الخندق نشيطاً ، واستأنف عمله ، فأخذ يضرب بفأسه ويحمل التراب وينقل الحجارة ، وسمع النبى يرتجز :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فراح يردد مع المسلمين خلف النبى

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

راح المسلمون يعملون فى حفر الخندق ، وجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، تحت قبة تركية ، فدخل عليه سلمان وهو يتصبب عرقاً وقال :

— يارسول الله بأبينا أنت وأمنا ، خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة ، فكسرت حديدنا ، وشقت علينا حتى ماتحيك فيها فاسا أو كثيراً ، فمرنا فيها بأمرك ، فإنا لانحب أن نجاوز خطك .

فهبط رسول الله مع سلمان فى الخندق ، فأخذ المعول منه ، فضرب الصخرة ضربة صدعتها وبرقت منها برقة أضاءت مابين لابتى المدينة حتى لكأن مصباحاً أضاء فى جوف بيت مظلم ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة فتح ، وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانية ، فصدعها ، وبرقت منها برقة أضاءت كالأولى ، فكبر رسول الله تكبيرة فتح ، وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثالثة فكسرها ، وبرقت منها برقة شديدة ، فكبر النبى صلى الله عليه وسلم تكبيرة فتح ، ثم كبر المسلمون ، ثم أخذ بيد سلمان فرقى ، فقال سلمان :

— بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد رأيت شيئاً مارأيته قط .

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم وقال :

— هل رأيتم مايقول سلمان ؟

— نعم يارسول الله ، بأبينا أنت وأمنا ، قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج ، فرأيناك تكبر فتكبر ، ولا نرى شيئاً غير ذلك .

— صدقتم ، ضربت ضربتى الأولى ، فبرق الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق

منها الذى رأيتم ، أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا يبلغهم النصر ، وأبشروا يبلغهم النصر ؛ وأبشروا يبلغهم النصر .

فاستبشر المسلمون وقالوا :

— الحمد لله ، موعد صادق بار ، وعدنا النصر بعد الحصر .

وقال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض :

— ألا تعجبون يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل ، يخبركم أنه يبصر فى يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، وأنها تفتح لكم ، وأنتم تحفرون الخندق ، ولاتستطيعون أن تبرزوا . وما وعدنا رسول الله إلا غروراً !

ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لأيقنوا أن ماوعدهم الله ورسوله حق وصدق ، وأن قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ستفتح قريباً ، وسيفتحها واحد منهم يحمل التراب على عاتقه غير متبرم ، وما زاده قول الرسول إلا إيماناً وتسليماً .

واستمر العمل فى الخندق ، ولما تم حفره هدأت النفوس واطمأنت القلوب ، وعسكر المسلمون فيه ينتظرون لقاء عدوهم بجنان ثابت .

وأقبلت جموع العرب لقتال المسلمين واستئصال شأفتهم ، ولكنهم لما رأوا ما أعده المسلمون للقائهم أحسوا خيبة أمل ، وأصبحوا فى كمد ، فما دار بخلدهم أن يفعل المسلمين هذا ، وما كان حفر الخنادق من أساليبهم فى القتال .

وحاول الكفار اجتياز الخندق مراراً ولكن سهام المسلمين التى كانت تصوب إليهم كانت تردهم على أعقابهم ، فلم يبق أمامهم إلا أن يضربوا الحصار على المدينة .

استمر الحصار ، وكان صناديد المسلمين يخرجون للمبارزة والقتال ثم يعودون ، وقد خرج سعد مراراً ، وبارز وطعن وقتل بين هتاف

المسلمين المتصاعد : « حم ، لاينصرون » .

وتصرم شهر ولم تنشب حرب بين الفريقين إلا رمياً بالنبل والحصار.

وفى يوم دعا رسول الله على الأحزاب :

ـــ اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم .

الليل شديد البرد ، والريح تصفر ، والمسلمون يخبمون بالخندق ، يدخلون خيامهم ، ثم تشتد الرياح فتصير صرصراً عاتية ، تقتلع خيام الكفار ، وتطرح آنيتهم ، فتدب الفوضى فى معسكرهم ، ويحاولون الالتجاء إلى مأوى يحميهم من غضب السماء ، ولكن يعز المأوى ، ويشتد الكرب فتضعف نفوسهم ، وتخور عزائمهم ، ويتمنون أن تكف الرياح عن زئيرها : وأن تلطف من ثورتها ليعودوا إلى مكة ، فلقد تحالفت الطبيعة مع المسلمين عليهم ، فماذا يستطيعون أن يفعلوا ؟ حصار لاطائل تحته ، ورياح لاقدرة لهم على الصمود فى وجهها ، فليعودوا ، وإن كان الفشل فى ركابهم .

وهدأت الريح ، وهدأ معسكر الكافرين كقبر مهجور ، فراح المسلمون يتساءلون مادهى القوم ، وما بال معسكرهم يخيم عليه السكون ؟ وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

ـــ من يأتينا بخبر القوم ؟

فقال الزبير بن العوام :

ـــ أنا .

وخرج الزبير إلى المعسكر المهجور ، فلم يجد إلا قدوراً انكفأت ، وفوضى ضاربة أطنابها ، وهدوءاً يلف كل شىء ، فعاد إلى إخوانه وهتف :

ـــ رحلوا . . . رحلوا .

فشاع الفرح والسرور ، وهتف سعد مع الهاتفين .

ـــ لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده .

ومد سعد بصره إلى الأفق البعيد ، كأنما يحاول أن يمزق بيصره حجب الغيب ليرى مايخبئه لهم من أحداث ، فاقترب النبي منه وقال :

ـــ الآن نغزوهم ولايغزوننا ؛ نحن نسير إليهم .

obeikandl.com

الفصل السادس

رجل من أهل الجنة

« يا سعد إن كنت للجنة خلقت فما طال عمرك
أو حسن من عملك فهو خير لك »
حديث شريف

شهد سعد المشاهد كلها مع النبي ، فكان البطل الذى لايشق له غبار ، لايخشى عدواً ولايهاب موتاً ، واشتد ساعد المسلمين ، وتوطد سلطانهم ، وانتشر دينهم ، فباتت قريش تخشى بأسهم ، وراحت تخطب ودهم ؛ لتدفع خطرهم ، فعقدت معهم صلح الحديبية ، ولكنها مالبثت أن جرت فى عهدها ، وحنثت فى وعدها ، فما كان من النبي إلا أن أعد جيشاً لفتح مكة . ودفع إلى سعد إحدى رايات المهاجرين الثلاث ، وتم الفتح المبين ، والنصر العظيم ، فدخل سعد مكة فى رابعة النهار ، رافع الرأس ، منشرح الصدر ، مطمئن الفؤاد بعد أن خرج منها طريداً ، معذباً ، مطأطئ الرأس ، دامع العين ، يتستر بالليل .

دخل سعد مكة الوطن الحبيب ، مهوى الفؤاد ، فأسرع إلى داره ليضم إلى صدره أهله وخلانه ، ليطفئ نار الشوق ، وليمتع العين برؤية الأحبة الذين طال البعد عنهم .

فرح المسلمون المهاجرون لعودتهم إلى ديارهم ، وفرح النبي بفتح الله المبين ، ولتحطيم الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة ، وأوجس الأنصار خيفة أن يتركهم الرسول ويبقى بين أهله وعشيرته ، وراحوا يتهامسون ويسأل بعضهم بعضاً : « أترون رسول الله إذ فتح الله عليه

أرضه وبلده ليقيم بها ؟ ، وبلغ هذا التهامس رسول الله ، فجمعهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

وعلم سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعود إلى يثرب ، فلم يفكر لحظة فى ترك النبي والبقاء فى داره بين أهله وأصحابه ، بل عقد العزم على مصاحبته : فما مكة ؟ ، وما الأهل ، والصحاب إن كان بعيداً عن النبي الحبيب ؟ ! .

وعاد المهاجرون إلى يثرب واستأنفوا حياتهم ، وفى يوم جلس النبي وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأناس آخرون ، وأخذوا بأطراف الحديث ، وأقبل سعد فانضم إليهم ثم قام النبي والتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال :

— إنى غاضبت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاث ليال ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تحل يمينى فعلت .

فقال سعد :

— على الرحب والسعة .

واستأنفوا حديثهم حتى خيم الظلام ، فصحب سعد عبد الله وعاد إلى الدار ، ونام سعد ، وبات عبد الله معه ، ولكن لم تغمض له عين ، وراح يرقب سعداً ويعد حركاته وسكناته : فألفاه يغط فى نومه ، لا يقوم إلا له ، ولكنه كان إذا ما تقلب فى فراشه ذكر الله وكبر ، وانقضى الليل ، وقام سعد مع الفجر ، وأسبغ الوضوء ، ثم صلى المكتوبة وأصبح مفطراً ، فاستأذن عبد الله وانصرف وهو يعجب من أمر سعد . وفى الليلة الثانية نام عبد الله معه واستأنف مراقبته ، فلم يجده يفعل أكثر مما فعل فى الليلة الأولى ، فانصرف وقد ازداد عجبه ، ومرت الليلة الثالثة كما مرت سابقتاها ، فالتفت عبد الله بن عمرو إلى سعد وقال له .

— لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجر ، ولكنى سمعت رسول الله

قال ثلاث مرات فى مجالس ثلاث : « يطلع عليكم رجل من أهل الجنة » فتطلعت أنت أولئك المرات الثلاث ؛ فأردت أن آوى إليك حتى أنظر ما عملك ، فأقتدى بك لأنال ما نلت ، فلم أرك تعمل كثير عمل .. ما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ؟ .

فقال سعد :

— ماهو إلا الذى رأيت .

فأدار عبد الله ظهره ، وهم بالانصراف ، وهو يحتقر عمل سعد ، فدعا به حين ولى فقال :

— ماهو إلا مارأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى سوءاً لأحد من المسلمين ولا أنوى له شراً ، ولا أقوله .

— هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا أطيق .

وخرج سعد وعبدالله إلى المسجد ، فألفيا رسول الله وبعض أصحابه جالسين فجلسا ، وأخذ النبى يذكرهم بيوم الوعيد ، ويرققهم ، فبان على سعد التأثر ، واستمر النبى فى حديثه ، فترقرق الدمع فى عينى سعد ، ثم بكى وأكثر البكاء ، وقال بصوت متهدج :

— ليتنى مت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « ياسعد إن كنت للجنة خلقت ، فما طال عمرك أو حسن من عملك فهو خير لك » .

الفصل السابع

الحج

« إن تقرر ذريتك أشياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس »
حديث شريف

أذن النبي بالحج ، فأقبلت الوفود على المدينة أفواجاً أفواجاً من كل فج عميق ، وضربت الخيام حول المدينة لمائة ألف أو يزيدون ينتظرون الانطلاق مع الرسول إلى بيت الله العتيق ، ليؤدوا مناسك الحج كاملة ، وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة ، تجهز الناس للرحيل ، وأقبل سعد بن أبي وقاص وزوجه وابنه ، وراحوا ينتظرون مع الناس حضور النبي ، واستوت الشمس في كبد السماء ، فأقبل الرسول الكريم ومعه نساؤه جميعاً كل في محفتها ، ثم أذن بلال فأم النبي القوم وصلى الظهر أربعاً ، ولما قضيت الصلاة ركب ناقته القصواء وانطلق ، فانضم الناس خلفه ، والتفت سعد حوله فرأى جمعاً زاخراً ملأ عينه ، وغمر قلبه ، وخلب فكره ، وبهر لبه ، فتذكر يوم خرجوا مضطهدين مشردين ووجوههم بواسر ، ورأى كيف يتجهون اليوم إلى مكة عزيزي الجانب ، باسمي الثغور ، مشرقي الوجوه ، فشكر ربه ، الذي أيدهم ونصرهم ، فصدق وعده .

وبلغ الحجيج وادي العقيق فنزلوا بذي الحليفة ، وصلوا بها العصر ركعتين خلف النبي ، ثم راحوا يتأهبون للقضاء ليلتهم بها ، وانقضى الليل ، ولاحت في الأفق البعيد تباشير الصباح ، فنهض سعد واتجه إلى

النبي فسمعه يقول : أتاني الليلة آت من ربي ، فقال : صل في هذا الوادي المبارك وقل عمرة وحج .

وقضيت الصلاة ، وركب النبي حتى استوت به راحلته على البيداء ، فالتفت إلى الناس وقال :

— جاءني جبريل فقال : يا محمد ، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها شعار الحج .

ونادى محمد ملبياً :

— لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لك ، لا شريك لك .

فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية خلفه ، وتجاوب الفضاء بالنداء ، وراح الكون يناجي ربه ، واستمر موكب المسلمين ، حتى بانت أرباض مكة ، فراح الموكب يغذ في السير ليدخل أم القرى وليطوف بالبيت العتيق ، وأحس سعد ألماً في رأسه ، ولكنه كان في غمرة حماسة يهتف من كل قلبه ، لبيك اللهم لبيك ، فنسي ألمه ، وفي اليوم الرابع من ذي الحجة دخل المسلمون مكة ، فاتجهوا إلى الكعبة ، واستلم سعد الحجر الأسود وقبله ، ثم أخذ يطوف بالبيت وراح يهرول ولكنه أحس بألم رأسه يشتد ، وانتهى الطواف فأحس بدوار وبساقيه لا تقويان على حمله ، ولكنه تجلد وخرج خلف النبي من الباب إلى الصفا ، فسمع النبي يقرأ : « إن الصفا والمروة من شعائر الإسلام ، ابدأ بما بدأ الله به ، فبدأ سعد بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة وهتف :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم نزل حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل ، حتى إذا صعد

مشى ، فلما أتى المزدلفة وقف عليها مع النبي يهتف :

— اسعوا إن الله كتب عليكم السعي .

ونظر سعد إلى البيت ، فرأى دنيا تتراقص ، وأحس كأن الأرض تميد به ، فأغمض عينيه وطأطأ رأسه وراح يلتقط أنفاسه ، وبقي على ذلك مدة ، ثم اتجه إلى خيمته وتمدد ، وطاف به ملاك النوم فراح في سبات عميق .

وفي يوم التروية تحرك الحجيج إلى منى ، وذهب سعد معهم وقد نال منه المرض ، ثم نزل خيمته ينتظر يوم الحج ، وطلع فجر اليوم المرقوب ، فخرج إلى عرفات وراح يرتقي الجبل ويهتف بصوت خفيض يتلاشى بين أصوات التلبية المدوية : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك » .

وانقضى النهار في دعاء ، ومالت الشمس نحو المغيب ، ولما ابتلعها الأفق البعيد امتطى رسول الله ناقته القصواء ثم سار حتى أتى بطن الوادي ، فخطب خطبة الوداع ، ثم نزل عن ناقته ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم ركبها حتى بلغ الصخرات ، ونادى النبي الحبيب على الناس : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » .

أتم سعد مناسك الحج الأكبر ، وقد نال منه المرض كل منال ، فاتجه إلى داره محمولا ، وثقل عليه المرض حتى أشفى على الموت ، وأقبل النبي يعوده ، ففتح سعد عينيه ، فلما رأى النبي همس :

— يا رسول الله ، بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟

— لا .

— أفأتصدق بشطره ؟

— لا . الثلث يا سعد ، والثلث كثير ، إنك إن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عاله يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبغى بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة التى تضعها فى فم امرأتك .

وصمت النبي صلى الله عليه وسلم قليلا ثم قال :

— اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ، لكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله إن مات بمكة .

ووضع النبي يده على جبهة سعد، فمسح وجهه وصدره وبطنه وقال :

— اللهم اشف سعداً وأتم له هجرته .

الفصل الثامن

وفاة الرسول

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل
أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب
على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله
الشاكرين » قرآن كريم

أبل سعد من مرضه ، وسمع لغطاً وجلبة فى الخارج ، فنهض وخرج
لر ما هناك ، فألفى مكة تغص بالناس ، وكل قبيلة تتأهب للانطلاق
ديارها ، فانطلق يجيل الطرف فيما حوله ينقب عن الرسول وصحبه ،
جده يتأهب للعودة إلى يثرب ، فسلم عليه ، وبان السرور فى وجه النبى
لاله ، ثم عاد سعد إلى داره ، وحمل زوجه وابنته وانضم إلى إخوانه
طلقين إلى يثرب .

عاد سعد إلى يثرب واستأنف حياته بها ، وفى يوم بلغ الدار فعلم أن
جه قد جاءها المخاض ، وأن بعض النساء عندها ، فراح يقطع الغرفة
اباً وجيئة ، وتصرم الوقت ، وارتفع صياح المولود فهز أوتار قلبه ،
سرع يستفسر فعلم أن الله قد رزقه مولوداً ، فحمد الله وسماه عمر .

وخرج سعد فرحان ، ولكن لم يدم فرحه فقد علم أن النبى مرض ،
ئى عليه لأنه لم يشك مرضاً قبل اليوم ، وذهب ليستفسر عنه ،
ابل مولاه أبا مويهبة فسأله :

ـ كيف حال الرسول ؟

ـ أرقى ثالثة .

ـ وما فعل ؟

ـ خرج يسير حول المدينة .

ـ وأين ذهب ؟

ـ إلى مقابر المسلمين .

ـ وما فعل هناك ؟

ـ استغفر لأهل المقابر

ودخل سعد على النبي فألفى الحمى قد ازدادت به ، فأطرق مكتئباً ، وخرج حزيناً وقد أقلقته الهواجس ، وراحت الأفكار تتزاحم فى رأسه ، واحتلت واحدة فكره : أيقضى الرسول كما يقضى الناس ؟ وحاول أن يطرد هذه الفكرة البغيضة التى سيطرت عليه وأقلقته ، فكان كلما طردها من ذهنه عادت إليه ، فتعوذ بالله من الشيطان ، وراح يقرأ ما تيسر من القرآن ، فهدأت نفسه ، واطمأن قلبه .

مرت أيام والنبي فى داره لا يخرج إلا للصلاة بالناس ، وفى يوم خرج إليهم معصوب الرأس ، واتجه إلى المنبر وجلس عليه ، وحمد الله ثم صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم ، وأكثر من الصلاة عليهم ، ثم قال : « أيها الناس أنفذوا جيش أسامة ، إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبله ، وأيم الله إنه كان خليقاً بالإمارة ، وأيم الله إنه لمن أحب الناس إلى بعده » وصمت النبي ، فخيم السكون على المكان حتى لم يعد يسمع فيه لاغية ، ثم استأنف النبي حديثه فقال : « إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » وصمت النبي ثانية وصمت الناس ، ولكن أبا بكر أحس أن النبي يعنى إليهم نفسه ، فبكى وقال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله » .

وراح النبي يوصى المهاجرين بالأنصار ، ثم دخل بيت عائشة وقد ازدادت عليه وطأة المرض بعد ذلك المجهود الذى بذله وهو مريض ، وقد أهريق عليه سبع قرب من ماء قبل أن يخرج إلى الناس .

وامتنع خروج النبي إلى المسجد ، وراح سعد يستفسر عنه كل يوم ، وفى يوم من الأيام ، وقف المسلمون خلف أبى بكر لصلاة الصبح ، ولمحوا النبي مقبلا معتمداً على على بن أبى طالب والفضل بن العباس ، ففرحوا لرؤياه ، وسرى السرور إليهم لإقبال نبيهم من مرضه ، وأحس أبو بكر حركة بين الصفوف ، فعلم أن النبي قد أقبل ، فنكص عن مصلاه ليخليه لرسول الله . ولكن النبي دفعه فى ظهره وجلس عن يمينه وصلى قاعداً .

وقضيت الصلاة فأسرع سعد إلى النبي ، وقد شاع البشر فى وجهه ، وانجفل الناس إليه والسرور يهزهم ، والفرح يكتنفهم ، وعاد النبي إلى داره وانصرف الناس إلى شئونهم والغبطة تملأ قلوبهم ، وانطلق سعد إلى داره مسروراً .

ثم يدم فرح سعد كثيراً ، فما كاد يستقر فى داره حتى بلغه الخبر الفاجع ، والرزء الفادح ؛ بلغه أن رسول الله قضى ، فما صدق الناعى ، وأسرع إلى المسجد يتنازعه الرجاء واليأس ، ولما اقترب منه سمع بكاء ونحيباً ، فأحس كأن قلبه يغوص ، ودخل المسجد فألفى المسلمين يموجون بعضهم فى بعض فراح يسأل :

« أمات رسول الله حقا ؟ » وما كان فى حاجة إلى أن يسأل أو ينتظر جوابا ، فقد كان الجميع يبكون ، فظهر الجزع عليه ، وأحس رغبة فى البكاء ولكن تحجر الدمع فى عينيه ، وجثم الحزن على صدره فضاقت أنفاسه ، وأحس جفافاً فى حلقه ، وأخذ يلفظ أنفاساً متلاحقة ، وأجال بصره الشارد فى المسجد فرأى عمر يجهش بالبكاء وينتحب بصوت عال ،

نحه إليه وتلاقت العيون ؛ فغامت عينا سعد بالدمع ، ثم انهمر غزيراً ، راح سعد ينشج بصوت مرتفع .

ثم جهاز الرسول ، ووضع على سريره ، وفتحت الأبواب للمسلمين دخلوا من ناحية المسجد ليلقوا على نبيهم الكريم نظرة الوداع الأخير ، دخل الرجال وقد غشى وجوههم الإظلام ، وارتسم عليها الأسى الحزن العميق ، ودخل سعد بوجه باسر ، مطأطىء الرأس ، كسير قلب ، ولما وقع نظره على النبي المسجى فى فراشه ترقرق الدمع فى عينيه ، وقف يصلى عليه فى خشوع ، وساد المكان صمت رهيب ، ولما أتم بو بكر الصلاة على النبي ، قال بصوت خفيض حزين :

— نشهد أن نبي الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه ، وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه .

فرد المسلمون عليه :

— آمين .

— وأنه وفى وعده .

— آمين .

— وأمر ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

— آمين .

وصمت أبو بكر فخيم السكون ، ثم أخذ الرجال ينصرفون وفى نفوسهم حزن ثقيل ، فهذا آخر عهدهم بالنبي الكريم ، الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهداهم سواء السبيل .

الفصل التاسع

مانعو الزكاة

« والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونه إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه »
أبو بكر

انفض كبار الصحابة من عند أبى بكر خليفة رسول الله ، لما
سعس الليل ، وهجع السكون ، وانطلق سعد إلى داره ، وفى الطريق
طلق لخياله العنان ، فأخذت حوادث الأيام الأخيرة تمر أمامه متتابعة
لاحقة ، فهذه وفود القبائل مقبلة كالبحر الزاخر ، بعد أن بلغها موت
ى ، وهاهى تقابل خليفة رسول الله ، وتعرض عليه أن يقيموا الصلاة
ألا يؤتوا الزكاة ، وهاهم كبار الصحابة يطلبون منه أن يتألف القوم ،
ألا يثيرهم عليه ، حتى لا يميلوا على المدينة ، وينقضوا عليها ، وليس بها
ن يذب عنها ، وقد خرج جل المسلمين فى جيش أسامة ، المنطلق إلى
لد قضاعة ، وهاهو أبو بكر يرفض هذا العرض الذليل ، ويقول القول
فصل : « والله لو منعونى عناقا (عنزا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله
لى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، وهاهى الوفود تعود إلى باعثيها ،
قد بان الغدر فى وجوههم ، وغمغم سعد : ترى ماتفعل لو انقضت
ذه الأقوام علينا ، وليس بالمدينة من يحميها ؟ ! ، واستمر فى تفكيره
تى بلغ داره فدخله وأفكاره معه ، وأخذ يهدى ويعيد حتى غلبه النوم
راحه .

ولما تجلى الصبح ، أقبل رجل على سعد يخبره أن أبا بكر يدعوه إليه ، فأسرع بالخروج ، حتى إذا ماأتاه ألفى علياً ، والزبير ، وطلحة ، وعبدالله بن مسعود عنده ، فانضم إليهم ، وراحوا يتذاكرون ما كان من أمر الوفود ، فقال أبو بكر :

— إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم قلة ، وإنكم لاتدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا .

وخرج المسلمون يستعدون للذود عن مدينة الرسول ، فلبسوا عدة القتال ، وخرج على ، والزبير ، وسعد ، وطلحة ، وعبد الله بن مسعود ، ونفر من المسلمين لحماية مشارف المدينة ، وبقى باقى المسلمين فى المسجد مدججين بالسلاح ، على استعداد للقتال إذا مافكر أحد فى مداهمتهم .

مر يوم ، واثنان ، وثلاثة ، وعلى ، وطلحة ، وسعد وأصحابهم عند مداخل المدينة يساهرون ، يرسلون العسس مستطلعين ، وما كادت شمس اليوم الثالث تغيب ، حتى أقبل بعض العسس مهطعين معلنين أن القبائل المجاورة قد تحركت قاصدة المدينة ، فبعث على وسعد وطلحة والزبير إلى أبى بكر رسولا ينبئه بالخبر ، فأجابهم أن الزموا أماكنكم .

استل سعد سيفه ، ووقف كالأسد متحفزاً للوثوب ، ومد بصره إلى الأفق مستطلعاً ، ولكن الليل كان حالكا ، فما كان بصره ليخترق طيات الظلام المتراكمة بعضها فوق بعض ، فأصاخ السمع فلم يبلغ أذنيه إلا صوت النسيم السارى فى سكون الليل ، فقد كان الكون نائماً ، ولم يك هناك من يقظان إلا هؤلاء البواسل الذى هبوا للذب عن حياضهم ، وأرهفت منه الحواس جميعاً ، إن القوم ليقبلون لإرغامهم على التجاوز عن فرض من فروض الإسلام ، ولكن هيهات ، فقد عقدوا العزم على

مناخة من توسوس لهم نفوسهم بالهجوم عليهم ، بل لقد عزموا على أن يقاتلوهم حتى يرغموهم على أن يؤتوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

وصلك أذن سعد رغاء إبل ، فتلفت حوله ، فرأى جموعا مقبلة من المدينة ، فأسرع نحوها فإذا أبو بكر فى أهل المسجد على الإبل قد تفرغوا للذود عن مهجر الرسول .

واجتمع كبار الصحابة ، وتشاوروا فى الأمر ، فرأى أبو بكر مفاجأة العدو فى غسق الليل ، وأخذه على غرة منه ، فامتطى المسلمون رواحلهم ، وراحوا يضربون فى جوف الليل البهيم ، حتى بلغوا معسكر الأعداء ، فانقضوا عليهم ، فأخذوا وولوا الأدبار ، فاتفق المسلمون أثرهم حتى ذا حسا ، وكان الأعداء قد تركوا هناك مدداً من الرجال ليشد أزرهم عند الحاجة ، فانضم المدد إلى فلول الفارين ، ووقفوا فى وجه المسلمين المغيرين ، وراح سعد يضرب فى عماية الليل ، ويشد على الأعداء ، ودار القتال شديداً رهيباً ، وأحس سعد راحلته تجفل ، فشد زمامها ووجهها صوب العدو ، فإذا بها تجفل ثانية ؛ وكان كلما حاول أن يندفع بها جفلت ، ترى مادهاها ؟ . جاء الأعداء بأوعية من جلود نفخوها وربطوها بالحبال ، وضربوها بأرجلهم فى وجوه إبل أهل المدينة ، فنفرت الإبل ، واستمرت فى ارتدادها حتى دخلت يثرب .

نام الأعداء تلك الليلة ملء الجفون ، ولم لا ينامون مطمئنين بعد أن لاح لهم النصر ، وأمسى الفوز فى ركابهم ؟ فما هو إلا أن تبزغ الشمس ، حتى يميلوا على المدينة بأسيافهم ، ويرغموا أهلها على التسليم لهم بعدم إيتاء الزكاة .

أما المسلمون أهل يثرب ، فلم يذوقوا للنوم طعما ، وراحوا يتأهبون لمعاودة الهجوم قبل أن يتنفس الصبح ، فلما كان الثلث الأخير من الليل ، خرجوا متسللين دون أن يسمع لهم وكز ، وبلغوا الأعداء مع الفجر ،

فداهموهم وأعملوا سيوفهم فيهم ، فهبوا من نومهم مذعورين ، يدافعون عن أنفسهم ، ولكن المنايا أطلت من أسياف أهل يثرب فراحت تحصدهم حصداً ، فلم يسع القوم إلا الفرار مدحورين مهزومين .

جاء المسلمون بعد هذا النصر من مختلف القبائل إلى المدينة يحملون الزكاة ، وفى هذه الأثناء عاد جيش أسامة مظفراً منتصراً فشد أزر أهل يثرب ، فرأى أبو بكر محاربة الذين ارتدوا بعد موت النبي ، فعقد أحد عشر لواء لقتال المرتدين ؛ فخرجت جيوش المسلمين لقتال مدعى النبوة وأتباعهم ، ولرفع الراية الإسلامية على بلاد العرب جميعاً ، كما كانت مرفوعة موفورة الكرامة قبل موت الرسول .

الفصل العاشر

المثنى بن حارثة الشيبانى (١)

« ليظهره على الدين كله »
قرآن كريم

دارت المعارك بين المسلمين والمرتدين ، وكان المسلمون ينتقلون من نصر إلى ظفر ، وكادت حركة المرتدين يقضى عليها ، وفى يوم جلس أبو بكر وعمر وسعد وعلى وكبار الصحابة فى المسجد ، وأقبل رجل عليهم ، وأخذ يقص عليهم ما فعله العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين بالبحرين ، وكيف انضم إليه المثنى بن حارثة ، وكيف سار المثنى عالا ، حتى وضع يده على القطيف وهجر ، وأنه بلغ مصب دجلة الفرات ، وراح الرجل يقص عن المثنى الشىء الكثير ، فسأل أبو بكر :

— ومن هو المثنى هذا ؟

فقال أحد الحاضرين :

— هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل القياد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى !

— ومن أى قبيلة هو ؟

— من بنى بكر بن وائل .

وراح أبو بكر يتأمل فيما سمع ، إن معنى سير المثنى حتى الفرات جزرة الفرس ، ومن يدرى لعل فى ذلك خيراً للإسلام ، ولعل فى ذلك

---

(١) ذكرت هذه الحوادث وما بعدها تمهيداً للقادسية .

انصراف المسلمين عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة . واستمر أبو بكر فى تفكيره وتأمله حتى قدم المثنى إلى المدينة ، وقابل خليفة رسول الله ، وراح يقص عليه أخبار فارس وضعفها ، ويهون عليه أمر فتح العراق ، وراح يقص عليه ما يلاقيه قبائل العرب التى نزلت بدلتا الدجلة والفرات من ظلم وجور الدهاقين ، وإن هذا الظلم يجعلهم كرجل يغلى بالمقت لهم ، فإذا ما هاجم المسلمون العراق ، ثار العرب النازلين به للتخلص من جور الدهاقين ، فكانوا عوناً للمسلمين ، واستمر المثنى يدلى بحججه فأطرق أبو بكر ساعة ، وساد الصمت بين الرجلين ، وأخيراً قال المثنى :

— أمرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى .

— سأشاور أصحابى فى الأمر .

وأرسل أبو بكر إلى عمر وعلى وعثمان وسعد والزبير وكبار الصحابة يدعوهم إليه ، فلما التأم عقدهم : دارت قداح الرأى بينهم ، فرأوا جميعاً ضرورة استشارة خالد فى الأمر ، فبعث أبو بكر إليه رسولا ، فجاء على عجل ، ولما عرف ما جاء المثنى فيه رأى ضرورة أن يعد الخليفة للحرب عدتها ، وأن يعتبر ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح يلقى إليه المسلمون بأجنادهم .

أمر أبو بكر المثنى على من قبله ، وراح المثنى يحارب الفرس ، ويناجزهم على العراق ، وجعل الفرس يجمعون الجموع ، وخشى أبو بكر أن ينتصروا على المثنى فأرسل إلى خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن يسيروا إلى العراق لنجدة المثنى ، فانطلق خالد ومعه عشرة آلاف مقاتل من اليمامة إلى العراق ، فلما بلغ حدوده ألفى المثنى فى

انتظاره ، فقسم الجيش إلى ثلاث فرق، انطلقت كل فرقة فى طريق، على أن يلتقوا جميعاً بالحفير .

دارت معارك رهيبة بين جيوش خالد وجيوش الفرس ، انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً ، فزادت حميتهم ، وراح الفرس ينقهقرون والمثنى يجد فى أثرهم معللا النفس بدخول المدائن عاصمة دولتهم ، وفيما هو يتعقبهم إذ بلغته الأنباء بأن جيشاً عظيما من الفرس قد خرج من المدائن للاقاة خالد ، فكتب إلى خالد بهذا ورأى من الحكمة ألا يقابل هذه القوة الهائلة فانحرف بجيشه ونزل بالمذار ينتظر قضاء الله . أقبلت جيوش الفرس ، ورأت جيوش المثنى فوجدت الفرصة سانحة لغسل ما لحقها من عار الانكسار ، ها هى جيوش المسلمين فى قبضتهم ، هجوم واحد ثم ينتهى كل شىء ، وشنوا هجومهم ، وقبل أن تدور المعركة ، ظهرت جند خالد ، مهللة مكبرة ، فشد ذلك من أزر المثنى وجنوده ، فانقلبوا أسوداً كواسر ، ودارت رحى معركة شديدة فغرت فيها المنايا أفواهها ، وأطيحت رءوس الفرس ، وانجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين .

تقدمت جيوش المسلمين ، وأخذت البلاد تسقط فى أيديهم بلداً بعد آخر ، وفى يوم جاء أمر الخليفة إلى خالد بالتوجه إلى الشام ، فخرج المثنى لتوديعه ، ثم عاد إلى الحيرة لينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد .

علم الفرس بسفر خالد فحسبوها فرصة سانحة للقضاء على المثنى ومن معه ، فوجهوا جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربته ، فلما ترامت الأنباء إلى المثنى خرج للاقاة العدو ، وبينما كان فى الطريق إذ وصلته رسالة من شهربازان عامل الفرس يقول له فيها : « إنى قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » فرد على هذه الرسالة مع نفس الرسول برسالة جاء فيها : « من المثنى إلى

شهربازان ، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك ، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم : فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

نزل المثنى على خمسين ميلا من المدائن ، وأقبل جاذويه وجنده يتقدمهم الفيل ، وراح الفريقان يتأهبان للنزال ، وابتدأت المعركة ، فأخذ الفيل يضرب المسلمين بخرطومه فيفرق صفوفهم ، فرأى المثنى ضرورة القضاء على الفيل ، فشد وجماعة من رجاله عليه وجعلوا يطعنونه حتى أردوه قتيلا ، ثم شدوا التكبير على الفرس ، واشتد الطعن والقتال ، فمزقوهم شر ممزق ، وحاقت الهزيمة بالفرس ففروا والمسلمون يتتبعونهم حتى وقفوا على أبواب المدائن يطرقون بابها .

بلغت أنباء الهزيمة الماحقة شهربازان ، فمات كمداً ، ووقفت جيوش المسلمين على أبواب المدائن ، وفكر المثنى فى أمره ، أيهجم على المدائن بما معه من الجند ؟ إن نفسه لتصبو إلى فتحها ، ولكن فتحها بمن معه فقط ضرب من المحال ، فرأى أن يطلب من خليفة رسول الله مدداً يعينه عليها ، فكتب إليه يخبره بانتصاراته ، وبحاجته إلى مدد يعاونه على فتح المدائن ، وطال انتظاره ، وأبطأ رد الخليفة ، وترامت الأنباء إليه أن أهل فارس قد اختلفوا فيمن يولونه خلفاً لعاهلهم ، وأخيراً أجمعوا أمرهم على تولية دخت زنان ابنته ، فتولت الملك ، ولكن لم يسمع لها ، ولم ينفذ لها أمر ، فتآمروا عليها وخلعوها ، وتولى سابور ابن شهربازان الملك ولكنه كان حدثاً فقام بأمره الفرخزاد ، وتقدم الفرخزاد إلى سابور يسأله أن يزوجه آزرميدخت ابنة كسرى ، فقبل ولكن آزرميدخت رأت فى هذا امتهاناً لكرامتها ، فقالت لسابور :

« يابن عمى ، أتزوجنى عبدى ؟ ! » فقال لها : « لا تقولى هذا إنه

زوجك » فكتمتها فى نفسها وبعثت إلى بعض أعوانها ودبرت معهم أمراً ، وفى ليلة العرس تم مادبرت ، فقتل العريس الفرخزاد ، وتملكت آزرميدخت . علم المثنى كل هذا فتيقن أن الفرصة مواتية لفتح المدائن ، فأسرع إلى المدينة لمقابلة الصديق وإقناعه بضرورة إرسال مدد له ليتم للمسلمين وضع يدهم على حاضرة الدولة العظيمة .

راح المثنى يجد فى السير ، حتى بلغ المدينة ، وعلم أن خليفة رسول الله مريض ، وأنه قد أشرف على الموت ، فلم يثنه ذلك عن عزمه ، بل طلب الإذن بالدخول ، فأذن له ، ولما دخل راح يقص على أبى بكر المدد فى فراشه ما فعله مع الفرس ، وكيف أن الفرس مختلفون فيما بينهم ، وأن فى هذا الاختلاف فرصة طيبة للمسلمين ، واستمر يدافع عن رأيه حتى اقتنع أبو بكر ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت فى يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا يشغلكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم »

ومات أبو بكر ، وفى صبيحة الليلة التى قبر فيها ، وقف عمر يندب الناس لقصد العراق ، فلم ينتدب له أحداً ، فقد كان المسلمون يخشون فارس لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الممالك ، وتصرم اليوم الأول ، وأقبل اليوم الثانى من خلافة عمر ووقف يندب الناس فلم يتقدم أحد ، وفى اليوم الثالث قام المثنى مهوناً على المسلمين أمر الفرس : « يأيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبجحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شق السواد ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ ماقبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها .

وقام عمر يخطب الناس : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى

الكتاب أن يورثكموها فإنه قال (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم. أين عباد الله الصالحون ؟

وتلفت المسلمون بعضهم الى بعض ، وتقدم أبو عبيد بن مسعود الثقفى ، فلما رأى سعد بن عبيد ذلك تقدم هو الآخر ، ورأى سليط ابن قيس تقدم أبى عبيد وسعد بن عبيد فتقدم ، فسرت موجة حماس بين الموجودين فراحوا ينضمون إلى المسلمين الخارجين لملاقاة فارس.

اجتمع كبار المهاجرين والأنصار بعمر وقالوا له :

ـــ أمر عليهم رجلا من المهاجرين أو من الأنصار .

فأبى عمر وقال :

ـــ إن من سبق الى الدفع وأجاب إلى الدعاء أولى بالرياسة .

وأمر أبا عبيد الثقفى على الجيش ، والتفت إلى سعد بن أبى وقاص وأمره أن يستعد للخروج إلى هوازن لجمع الزكاة والعشور .

استعد الجيش للخروج ، واستعد سعد للانطلاق إلى هوازن ، وخرج مع عمر لتوديع الجيش ، ولما بلغا مكان الجيش التفت عمر إلى أبى عبيد وقال:

ـــ اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى لا يعرف الفرصة والكيف ، ولم يمنعنى أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان ، والله لولا سرعته لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث.

وتحرك الجيش فى رعاية الله ، وخرج من المدينة قاصداً الفرس لإعلاء كلمة الحق ، وفى نفس الوقت خرج سعد لجمع أموال هوازن ، وما دار بخلده أبداً أن القدر قد ربط بينه وبين الجيش الخارج بأوثق رباط.